سمير عبده

المسيحيون في سوريا على عتبة الألف الثالث

حسن
منشورات دار حسن ملص

* المسيحيون في سوريا على عتبة الألف الثالث

* تأليف: سمير عبده

* الطبعة الأولى : كانون الثاني ٢٠٠٢

* حقوق الطبع محفوظة للناشر :

دار حسن ملص للنشر
دمشق ـ سوريا ـ ص.ب ٦١٧٤
هاتف : ٤٤١٩٦٥٣
فاكس : ٤٤٢٨٠٠٥

* التنضيد الضوئي و الإخراج : مشلين حداد

* موافقة وزارة الإعلام رقم ٦٠٢٤٣ تاريخ ٢٠٠١/٨/٤

*الصورة الأولى: من اليمين فارس الخوري رئيس الوزراء مع رئيسي الجمهورية السورية شكري القوتلي و ناظم القدسي
* الصورة الثانية : د. قسطنطين زريق رائد القومية العربية
* بقية الصور لأنشطة مسيحية في حلب

---

* جميع الأفكار و الآراء الواردة في الكتاب تُعبر عن وجهة نظر المؤلف
* في حال أخذ أية مادة في الكتاب يرجى التنويه إلى المصدر

مقدمـــــة

لا تزال الدراسات حول المسيحية السورية *على مستوى المعرفة قليلة جداً, خاصة على مستوى الوعي العام بها. و من ثم تبدو المسيحية و تجسيداتها المؤسسية و المعرفية و الحركية و تفاعلاتها و قضاياها الخاصة , كانتروبولوجيتها, غائبة , و إن كانت الدراسات بهذا الخصوص ناشطة في لبنان. و ثمة غياب لدراسات ترصد صعود السلطات المسيحية في حياة السوريين المسيحيين اليومية. ناهيك بحساسية قضايا التفسير الديني و التأويلات المسيطرة في هذا الصدد, و سيطرة النصوصية و التقليدية و السلفية, و غياب التجديد و الاجتهاد بكل الإشكاليات التي ينطوي عليها هذا الحقل العلمي المهم نظرياً و تطبيقياً, فضلاً عن انعكاسات التفسيرات الدينية على العلاقات الاجتماعية بين السوريين المسيحيين بعضهم ببعض , و بينهم و بين المسلمين, و على تكوين نظام الأسرة و أدواره الداخلية . إذاً, ثمة نقص و فراغ في الدراسات الأكاديمية التي تحاول كشف هذا المجهول و تحليله و معرفة دوره.

و على هذا قمنا في السنين الأخيرة بوضع أكثر من كتاب حول هذا الموضوع , الأول عنوانه (المسيحيون السوريون خلال ألفي عام) , و تلاه في العام التالي (المسيحيون السوريون قديماً و حديثاً) و ها نحن نضع الكتاب الثالث في هذه المسألة (المسيحيون في سوريا على عتبة الألف الثالث) متوخين استكمال ما عرضنا له في كتابينا السابقين.

إن وضع المسيحيين السوريين لا يمكن مقارنته بالحالة الدينية في مصر (١)

---

* في كل ما تناولناه من دراسات حول المسيحية كانت سوريا تعني لنا (سوريا الطبيعية) التي قسمها الاستعمار بموجب معاهدة سايكس – بيكو في النصف الأول من القرن العشرين إلى أربعة بلدان هي: سوريا و لبنان و فلسطين و الأردن.

١- من ضمن الدراسات الجادة بهذا الخصوص راجع:

نبيل عبد الفتاح: الحالة الدينية في مصر مجلة شؤون الأوسط- بيروت العدد ٦٢ آيار ١٩٩٧

فالمواجهة هنا كانت في تدعيم مراكز الطوائف في الحقل القومي و الوطني , و على رأس ذلك القومية العربية , و تعاظم هجرة المسيحيين إلى بلاد الاغتراب(١)، حتى أن بعض الطوائف المسيحية كاد أن يند ثر وجودها في بعض المدن و البلدان, أو أن عددها في الوطن الأم أصبح أقل عدداً من أفرادها في بلاد المهجر, نتيجة عدة عوامل منها: الأوضاع الاقتصادية التي سادت المنطقة منذ منتصف القرن الماضي , و ضعف المراكز العلمية التي كان يشغلها المسيحيون السوريون نتيجة لظروف عدة, و لهذا تبد و دراسة الفضاء المسيحي السوري بكل مكوناته و تجلياته و أغواره السياسية و المجتمعية و الثقافية حاجة ملحة و ضرورية لكسر الحواجز الإدراكية و النفسية و السواتر الثقافية و الأنساق الذهنية و الثقافية المغلقة .

و دراستنا ترمي إلى المعرفة بالآخر الديني و إلى تدعيم الحوار الوطني و التفاعل الاجتماعي و المشاركة كنمط حياة يومي و تطوير البحث الاجتماعي و مده على نطاقات معرفية غير واضحة للبعض. و إلى معرفة المثقف و رجل السياسة و المبدعين أيا كان تخصصه , و لا سيما في المواقع القيادية , و إلى فهم أعمق للمجتمع السوري.

و تكاد بعض شعوب الشرق لا تعرف تاريخها معرفة علمية دون الرجوع إلى ما تراكم في الدراسات الغربية عنها. فالشعوب التي تصنع حاضر العالم تسيطر أيضاً على تاريخه. (٢)

لهذا فإن تناول المسيحية في سوريا يكشف عن عمق التدين السوري على مدى ألفي عام , و عن مدى رسوخ الجذور الدينية في البينة النفسية و الإدراكية الجماعية للسوريين , أيا كانت انتماءاتهم الدينية و المذهبية . و عن نظرتهم لأنفسهم و للآخرين , و رؤيتهم لعلاقاتهم بالذات و بالآخر . بل رؤيتهم للعالم, تلك الرؤية المؤسسة على مصادر عدة , في مقدمتها المرجعية الدينية , مع بعض المدارس الفكرية و السياسية التي تطرحها

١- إن الوجود المسيحي في الشرق يتقلص, و قد كان لبنان آخر معقل للمسيحية , فإذا غادره المسيحيون, تبقى أرض المسيح دون شهادة مسيحية. و هذه خسارة لا للمسيحية و حسب, إنما للحضارة الإنسانية و للتعايش السلمي بين الأديان و بخاصة بين المسيحية و الإسلام .. راجع :

صحيفة النهار- بيروت ٢٠٠١/٣/٨ من تصريح للبطريك الماروني مار نصرالله بطرس صفير

٢- مجلة الاجتهاد – بيروت العدد التاسع و الأربعون شتاء العام ٢٠٠١ ص ٢٣ الفضل الشلق

في سياق التنافس الداخلي و دينامياته , و غالباً لا تطرح رؤى تناقش الإيمان و بنيانه في جذوره أو ترفضه كلياً . و لكن غالب أبناء هذه المدارس لا ينزعون إلى معاداة الديانات السماوية السائدة, و إنما جل ما يدعون إليه هو قصر مجال الاعتقاد الديني و إيمانيا ته على المجال الخاص , أي في حدود إيمان الشخص في حرية اعتقاده و سلوكية لا ترتب التزاما باتحياز الدولة و أجهزة السلطة إلى تصور ديني و مذهبي إزاء أديان و مذاهب أديان أخرى. و يمكن لنا إيراد شواهد كثيرة على ذلك من بدء الفتح العربي لبلاد الشام إلى عصر النهضة و المناداة بالقومية العربية إلى ترسيخ مفهوم المواطنة للجميع و الدفاع عن مصالح الوطن في الأقطار الأربعة التي نتجت عن تقسيم سوريا في القرن العشرين .

كما أن المسيحية لم تصمد و لم تستمر على مدى القرون بفضل حمل السلاح و لا باللجوء إلى حماية أجنبية , إنما بقيم القدوة و المثال التي جسدتها , إيمانا و كنيسة و تعليما, و ثقافة و مجتمعا, و إلى صلابة تمسكها بالشهادة للمسيح , و بالانفتاح على الآخر و التحاور معه , و بالروح الاستقلالية المنيعة الاتصال بالتجذر بهذه الأرض, و بهذه الهوية.

إن المسيحيين في سوريا يفتخرون بأوطانهم لأنها مهد رسالتهم الدينية, فيها ولد المسيح و بلغتها تكلم , و هي التي أصبحت مركز الثقل في القوة المسيحية و انتشارها عبر العا لم . و كانت أنطاكية , عاصمة بلاد الشرق الروماني, و لعبت في بدء انتشار المسيحية دوراً حاسماً فكانت ملتقى زعماء الرسل و منطلقهم إلى سائر الأقطار . و عندها أصبحت المسيحية الديانة الرسمية في الأمبراطورية الرومانية , في غضون القرن الرابع الميلادي , كانت بلاد المشرق الروماني (سوريا) في مقدمة البلاد الرومانية من حيث كثافة الشعب المسيحي و من حيث حيويته . و إذا كانت الطائفة السريانية هي الأولى بين الطوائف المسيحية في القد م, فقد تشكلت طوائف عدة متفرعة عن الأرثوذكسية و الكاثوليكية إلى أن كانت الطائفة الإنجيلية قبل قرن و نصف تقريباً.

لقد لعب الدين الدور الكبير في التاريخ الإنساني و حضارته, خاصة لدى الأمم و الشعوب التي كان (الدين) أحد أهم أسباب نشأتها لكونه (الجانب المتميز في جميع الحضارات الإنسانية , منذ عرفت هذه الحضارات حتى الآن) . (١)

١ـ د. محمد البهي : الدين و الحضارة الإنسانية مكتبة الشركة الجزائرية- الجزائر ص ٦٣ دون ذكر تاريخ الطبع

إن نظرة المسيحيين إلى وضعهم الخاص كملة و إلى المسائل العامة , كانت و مازالت تنطلق من زاوية نوعية ثابتة , ألا و هي منطق الدولة الشمولي , في الدول التي قسمت سوريا فيها , و ليس قطعا من منطق فنوي بكونهم علة, بل نظروا إلى طوائفهم و الطوائف الأخرى من زاوية بلدانهم , و هو ما دأبت كل الطوائف المسيحية في التمسك به.

و لا يهدف الكاتب إلى تقديم بحث في التاريخ الكنسي يتناول ميراث الكنائس الشرقية و فوارقها بل يرمي إلى رصد حياة مسيحيي سوريا داخل مجتمعاتهم. و بعد المقدمة هناك مدخل إلى الموضوع حيث نبتت من سوريا المسيحية و إلى أين وصلت في الوقت الحالي و الصعوبات التي تجابهها.

و يتضمن الفصل الأول (الحوار المسيحي الإسلامي) الذي برز في السنوات الماضية و مدى صوابية هذا الحوار و خصوصيته, و تأثر الفريقين الوطنيين به بالطابع الديني الذي يوفره لكل واحد إيمانه, سواء أكان الموضوع بحثاً علمياً أم تعبيراً أدبياً أم تفكيراً فلسفياً.

و يتناول الفصل الثاني (الثقافة السورية المسيحية) , و (وُضِعَ) اسم سوريا للتفريق بين المسيحية كعقيدة دينية و المسيحية كثقافة أو حضارة , فإذا كانت المسيحية كعقيدة ثابتة فالمسيحية كحضارة متحولة , و الثقافة – الحضارة هي ما يحققه الإنسان في الطبيعة. و الثقافة السورية المسيحية التي ظهرت في سوريا على مدى ألفي عام هي من صنع الناس الذين قطنوا سوريا.

و يتضمن الفصل الثالث (الفكر المسيحي في الثقافة العربية) و هو الذي أغنى المنطقة في كافة مجالاته و لم يثر الاهتمام بدراسته إلا في أواخر القرن التاسع عشر. و كان قبل ظهور الإسلام و إلى قرن العشرين أحد أهم أركان ثقافة المنطقة و الذي تكتب عنه المجلدات الطوال.

و يتناول الفصل الرابع (الهجرة المسيحية بين حسناتها و سيئاتها) و هذا العنوان أطلقه أحد رجال الدين المسيحيين , فإن كان للهجرة حسنات فهي سوف تعود على الأفراد غنى ماديا, و لكن الأوطان و الكنيسة ستفقدهم مع المستقبل , فالمسيحي هنا سوري مشرقي, و ليس غربي طارئ على المسيحية , و فقدان هويته في بلاد الاغتراب هو خسارة للمسيحيين الأوائل.

و يتضمن الفصل الخامس (الطوائف المسيحية في سوريا) ما استجد على هذه الطوائف من تطورات خلال الأعوام الأخيرة من القرن العشرين , و إعطاء لمحة عن ذلك لكل من الكنيسة السريانية الأرثوذكسية, و الكنيسة المارونية, و الكنيسة الأرمنية, و كنيسة الروم الأرثوذكس , و كنيسة الروم الكاثوليك , و الكنيسة الإنجيلية, و لمحة عن الكنائس الأخرى .

إما الفصل الأخير و هو يشكل ثلث مساحة الكتاب فقد تناولنا به (الدور السياسي لمسيحي سوريا) الذين لم يحكموا و لو ليوم واحد في بلادهم لظروف عدة إلى أن تمثلوا في الحكومات الوطنية و طلع منهم كبار قادة الوحدة العربية و المدافعين عن الوطن , مع ذكر لأسمائهم إلى نهاية القرن العشرين.

إن الموضوعات أعلاه تكتب بها مجلدات بل أن عشرات – و ربما مئات – الدراسات و البحوث حول موضوع المسيحية في سوريا, وفرت كماً هائلاً من المعلومات عن نقاط تفصيلية كثيرة, و لكنها لم تفلح في الإجابة عن أسئلة مبهمة, هل تسير عمليات التنشئة الاجتماعية بحيث تخلق مواطناً يفهم ذاته و يقبلها , و يفهم الآخرين و يمكنه أن يقيم علاقات مشبعة معهم, و يفهم الواقع و يستطيع أن يكون إيجابياً إزاءه؟ و هل تسمح التنشئة الاجتماعية للإنسان بأن يحقق إمكاناته و استعداداته لأكبر مدى ممكن, بحيث لا تأتي الأجيال المختلفة تشبه بعضها بعضاً, و إذا المجتمع يكرر نفسه, و إذا لم تكن تفعل ذلك ، فماذا من أوضاع و ظروف في البيئة الاجتماعية – مثلاً- يحول دون بلوغه ؟ و أية قيَم أخلاقية , وغيرها , ترسخها عمليات التنشئة الرسمية و غير الرسمية ؟ و في أي اتجاه تسير هذه؟

و الأمر الخطير الذي يكشف عنه واقع المسيحيين في هذه المنطقة هو غياب التنظير, بل و التفسير, في حالات كثيرة , و فقره أو تصوره في معظم الحالات التي يوجد فيها و الاستثناءات قليلة . لهذا علينا أن نتذكر أن أية جماعة تمتلك في لحظة زمنية معينة رصيداً من رأس المال البشري هو إلى حد كبير صنو رأسمالها العيني: فرصيد الجماعة من رأس المال البشري هو مقدار ما يوجد لديها في فترة معينة من عناصر بشرية ذات كفاءة معينة . و بعبارة أخرى فإن رأس المال البشري هو محصلة عد د أو (كمية) الوحدات البشرية المتوافرة لديها مضروباً في فاعليتها , أي نوعيتها , خلال فترة زمنية معينة, كشهر , أو سنة , أو قرن، أو عشرين منه, و هو عمر المسيحية في هذه المنطقة . و هذا ما

ركزنا عليه في دراستنا هذه, مجموعاً مع الدراستين اللتين سبقتاه حول ذات الموضوع (المسيحيون السوريون) , ما هو إيمانهم ؟ ما هو دورهم الريادي في هذه المنطقة ؟ أين مصيرهم؟

إن القيادة الفاعلة في مختلف مستوياتها و حلقاتها تتضمن , فيما تتضمن , القدرة على اتخاذ القرار الصعب , و لكن الصائب, القبول بتحمل المعاناة في سبيل تنفيذه . و قد عاشت البشرية آلاف السنين و همها الأكبر مجرد المحافظة على الحياة و استمرار تجددها , و لم تملك ترف المضاربات العقلية إلا في عصور متأخرة.

و إذا كان لكل كتاب قصة, فإن لهذا الكتاب قصة الاستمتاع بتدوين تاريخ شعب يستحق منا الإعجاب و التقدير لما أنجزه عبر ألفي عام من عبقرية متميزة. و من هذا المنطلق , و في حدود ما تسنى لنا الحصول عليه من مراجع , فاقت بعددها , كل المراجع الأخرى التي وضعت في كتبنا, وهي غير المراجع التي استعنا بها في كتبنا السابقة, إلا فيما ندر, و هو ما يوسع من دائرة الدراسة .. و على ذلك قمنا بوضع هذا الكتاب.

و ثمة ملاحظة بسيطة سبق ذكرها و هي أن اسم سوريا , وضع مرة بالألف الأخيرة أو التاء المربوطة , مع أن الأصح أن تكون بالألف لغوياً , و لكن الخطأ الشائع ما توضع به بالتاء المربوطة.

إن ما تقدمنا به في فصول دراستنا ليس نهاية مطاف في التاريخ المسيحي لهذه المنطقة, فالطريق أمام المعرفة مفتوح دائما , و الجميع مدعوون, كل حسب عمله و قدر جهده , إلى أن يسيروا على دربه.

سمير عبده

ص. ب ٩١٤ دمشق

مـــدخـــل

تشـــكل سوريـا الطبيعية (سوريا و لبنان و فلسـطين و الأردن) الامتـداد الطبيعـي و المنطقي لجغرافية بلاد الرافدين الآسيوية من الشرق و سيناء و مصر من جهـة الشما ل الأفريقي , حيث كان يتم التوافق الاقتصادي و اللقاح الحضاري بحكم الضرورة بيـن القوتيـن العظميين الرافدية و المصرية عبر الجسر السوري الفلسطيني الضخم. (١)

و في سوريا شعب قديم حكيم , اعتصر مـن تجـارب التـاريخ حكمـة الزمـن و صمـد آلاف السنين و كأنه الشاهد على حركة الأيام و تقلباتها و قيام و سقوط الحضارات و الأمـم . و شـعب هـذه خصائصـه لا تزعجـه الطارنـات مـن الحـوادث , و لا تفزعـه المتقلبـات مـن المواقف, و لا ينال من صلابته تلون الأصدقاء , أو غدر بعض الفرقاء, فكأنـه مـن كـثرة مـا خاض من التجارب , و عبر عن المحن, بات على علم بما تكنه الأيام و ما تحمله الليالي.

من سوريا نبتت المسيحية و شعت على العالم , و كـان انتصارهـا علـى الرغـم مـن وحشية ملاحقة و اضطهاد أجهزة الأمبراطورية الرومانية يعود إلـى دعوتـــها الاجتماعيـــة و توافق قواعد الإيمان معها. فالإستسلام للأب في السماء و الاقتناع أن ابنه المسيح صلـب لينقذ البشرية و يطهرها من ذ نوبها, و التلويح بالحياة الأخرى في الجنة تجاوب مع طمـوح مجمـــوع سكـــان الأمبراطورية الرومانية الـتي انزلقـت , بضغوط الصراعـــات الطـبقية و التمردات الإقليمية إلى الحضيض و تدهورت مع أوضاع الناس العاديين من الفقراء عبيـداً كانوا أم أحراراً. (٢)

إن الصبغة التي ألبست سكان هذه البلاد قدرتهم على التكيف في وضع و فـي ضده و على مواجهة الظروف الداهمة قـابلاً بالمغـامرة و مواجـهاً الاستفزاز بشجاعة . لقد قنـع المفكرون من حكماء الصحـراء بـالنصح و الإرشـاد أكثر ممـا اهتمـوا بتنظيـم مذهـب فكـري مـترابط . و هنـا يكمـن التفـاوت بيـن العبقريـة السـامية و الفكـر اليونـاني , و سـوريا كـــانت

١- مجلة سومر – بيروت العدد ٢ ١٩٩١/١١/١٨ ص ١٦ محمد وحيد خياطه

٢- د. اميل توما : الحركات الاجتماعية في الاسلام دار الفارابي- بيروت ١٩٨٠ ص ١٣٧

السباقة بين منظومة العالم في ذلك , و كذلك في بساطة الإنجيل و تحليلات بولس الرسول . و الإنسان في هذه المنطقة لا ينفذ فقط إلى الأسرار بل يبقى السر دائما في داخله جرحاً مفتوحاً لأن الحق يتجاوز كل مظهر . فالساميات تفوق الإنسان , و الإنسان لا يحتويها بل يلجها فتحتويه.

لقد خلق الله كل إنسان مع شعور ديني و حاجات دينية يجسدها بطقوس و أفعال عبادة خاصة ورثها عن جدوده و آبائه. و الشرط الوحيد و الجوهري لخلاص الإنسان إنما هو أن يتبع ضميره , و ضميرُه مُقيّد بالبيئة التي يولد و يعيش فيها. و من المؤسف جداً أن الأديان , في تاريخ الشعوب , كثيراً ما كانت مدعاةً للبغضاء و التفرقة و إثارة الحروب الدينية بدل أن تكون وسيلة للسلام و المحبة و الأخوة . فكلنا , شئنا أم أبينا , أخوة, أبناء الله الواحد , و هو أب لنا جميعاً يطلب إلينا أن نمد يد المصالحة بعضنا إلى بعض لنبني معاً عالماً يتلألأ بروح الأخوة, فنتطلع إلى كل الأديان بعين القلب المُحِبة, و نتعلم منها ما يزيدنا غنى روحياً . و لنتذكر الآية القرآنية الكريمة (و لو شاء ربُّك لآمن في الأرض كلهم جميعاً , أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) , فتصدق فينا آية ثانية للقرآن : (و لتجدنَّ أقربهم مودّة للذين آمنوا , الذين قالوا إنا نصارى و ذلك بأن فيهم قسّيسين و رهباناً و هم لا يتكبّرون).

و منذ حمورابي و قبل روما و بيزنطية بزمن كانت هذه المنطقة موطن القوانين و الطقوس و الفتاوى التي ترمي إلى تبرير الفعل و تنعكس على الدين فتطبعه بالطابع القانوني الاجتماعي . ففي كنائس الغرب كانت العقبة أمام الكنيسة عقلية تأثرت بالنظريات الدهرية الطبيعية , أو بالاعتقاد بأنه ليس من خطيئة جدية, أما في سوريا فإن الاتجاه العام ليس اتجاه القديس اوغسطينوس بل اتجاه مار أفرام السرياني و يوحنا الدمشقي و مكسيموس المعترف و كلهم يتنكر لعبودية الشريعة من أجل أن يحيا الإنسان حراً.

إن الجماعات المسيحية التي وضعت في الهامش طيلة ثلاثة عشر قرناً بفعل مبدأ الذمة, برهنت في القرن العشرين أنها أقليات تتمتع بحيوية الأكثرية و تدفع حركتها و تحوّل دون جمودها.

و لكن الخلاف بين الكنائس المسيحية في هذه المنطقة لا يمثل طموح الشعب إلى وحدة كنسية . و قد ذكر علي بن داود الأرفادي الذي عاش في مطلع القرن العاشر, في مقدمة مقاله عن الاختلاف القائم بين الملكية و اليعاقبة و النساطرة قائلا:

(وجدتُ هذه الثلاث الفِرَق المقدَّم ذكرُها, لكل فرقةٍ منها قومُ جُهّال, و أهلُ شغبٍ و لجاج. تدَّعي كلُ ملّةٍ على مَن خالفها الكُفرَ, و تُشنّع عليه الخروج عن الإيمان. فلمّا نظرتُ في ذلك بحقيقة النظر, و تصفّحتُه بواجب التصفُّح , لم أجد بينه فرقاً يُوجِب المخالفة, من جهة الديانة و الأمانة, و لا رأيتُ فيهم إيماناً ينقض إيمان صاحبه, و لا اعتقاداً يفسخ اعتقادَ الآخَر).

و يضيف (اختلافُ أهل دين النصرانية إنما هو باللفظ و القول, دونَ المعنى و الإيمان. إذ كان الإيمانُ واحداً , لا فرقَ فيه البتّة).(١)

إن تعدد الرئاسات الروحية المسيحية و توازيها هو نتيجة الانفصال لا سبب له. لذلك فإن اتحاد الرئاسات في المستقبل لن يكون مبدأ الوحدة بل نتيجة له. فوحدة الكنيسة صفة ملازمة لها, تتحمل مصير أخواتها من صفات الكنيسة أي القداسة و الجامعية و الرسولية, و هي كلها في الصيرورة , في الخروج الدائم و في النضال . و بدون المعطيات الإيمانية تستحيل الرؤية الشاملة الواحدة لما فعله التاريخ في الكنائس. و الأجدر أن يدرك الجميع أن الكنيسة تنمو من خلال جراحها و حتى من خلال انقساماتها. فكنيسة انطاكية التعددية نمت خلال عشرين قرناً لتصير كنيسة واحدة , هذا إذا أريد لها ذلك.

و ليست وحدة الكنائس في هذه المنطقة أضغاث أحلام و لكنها موجودة بالضبط حيث تمارس الشركة بين الكنائس بانتظار ممارستها مع كل مسيحيي المنطقة. و من باب التمنيات أن تصبح كنائس هذه المنطقة كنيسة واحدة, و لكن من المعقول أن تسير شيئاً فشيئاً نحو الشركة الكاملة. و بعبارة أخرى ليس الهدف إزالة الكنائس بل إبرازها من خلال بعضها بعضاً دون تجاهل خصوصيتها, مع أن الشعب الموحد يدعو إلى أن يصبح شعب الله الواحد, أي الكنيسة الواحدة.

١- وردت هذه النصوص مترجمة في مقال الأب سمير خليل : التراث العربي المسيحي القديم و تفاعله مع الفكر العربي الإسلامي مجلة المسرة- حريصا ك٢- حزيران السنة ١٩٩٠/٧٦ ص ١٥٨-١٥٩

إن الكنائس في هذه المنطقة لم تتطور في الاتجاه الذي يتوقعه غيرها من الكنائس الأجنبية التي تشهد منذ عشرة قرون توسعاً استعمارياً و صناعياً و رأسمالياً و ثقافياً. (١) كما أن كنائس سوريا لم تعد تلك الجماعات الهامشية الخارجية الممصوصة الدم إثر الصدام بين المماليك و المغول , أي الموضوعة في الظل كما أيام الحكم العثماني . إن النظرة العقلانية تفرض على مسيحيي المنطقة أن ينظروا الآن إلى الأمام , و أن يقفوا وجهاً لوجه مع الحقيقة الراهنة التي تسلموها من التاريخ. إنهم مواطنون يسهمون حيث هم في مشروع البناء الوطني , و من الضروري أن يكونوا مواطنين بالمعنى الكامل للكلمة , و أن يساهموا مساهمة فعالة في مجابهة الذهنية الطائفية فتحدث فيها تحولاً مسيحياً دونما انتظار تشريعات جديدة. فالذهنية الطائفية تشجع الانطواء و الانكفاء و تؤدي إلى التناحر .

و على الكنيسة أن تعي ذلك و أن تنمي مواطنيها تنمية إنسانية , و أن تعطي الوضع البشري قسطه من الجدية. و أن تتحسس أحاسيس الأجيال الصاعدة التي تنمو في جو من الفراغ و الخيبة , فهذه الأجيال عندها حساسية سلبية نحو الكنيسة و تسعى إلى التحرر من الأطر التقليدية . هذه الأجيال تبني خياراتها الوطنية على رؤية صادقة و نبل في النفس , فيما أن كنائس المنطقة تتطلع كثيراً نحو الماضي متأخرة عن سباق الزمن.

إن الكنائس في الغرب تعمل مع المجتمع لا ضده, و تمجد الرقي لا تلعنه و تدعوا إلى الحياة لا إلى الموت ، و تتطور مع العلم و الزمن و تقدم للفرد- دائما- كل حاجته الروحية التي تمكنه من السير مع مجتمعه لا التخلف عنه و النفور منه.

و لعل السبب الذي نهض بالكنيسة المسيحية في الغرب أن الجيل الداعي إلى الله من رجال الكنيسة , جيل مثقف ثقافة واسعة عالية يعرف كيف يستخدم الدين استخداما رقيقاً في إملاء الفرد و بناء الأمة.

١- الأب جان كوربون: كنيسة المشرق العربي, و الاسم الأصلي للكتاب (كنيسة العرب) ترجمة المطران (و من ثم البطريرك) اغناطيوس هزيم منشورات النور- بيروت ١٩٨٠ و المعلومات الواردة منتقاة من هذا الكتاب فيما يقول الأب داغر (نحن مسيحيي الشرق خاصة نتكل على الغرب و نستجدي منه المال و الرجال لنقوم بمؤسساتنا هذه الجبارة فأعطينا المسيحية طابعا غريبا ينفر الشعوب الشرقية بدل أن يجتذبها , سيما أن خبرتها الماضية مع الغرب هي خبرة أليمة. . دينيا و سياسيا)

راجع: الأب يوسف داغر مجلة المسرة – حريصا آيار – حزيران ١٩٩٢ ص ٤١٨

و المطلوب من رجال الدين عدا الصلاة فتح النقاش مع الكل: أطفال و معهم رائد يناجيهم و يناجونه, يرصد ميولهم و انفعالاتهم, و يقدم لهم ألواناً بهيجة من الثقافة الخفيفة التي تلائم عقولهم. و هؤلاء شباب مراهقون يجلسون إلى عالم نفساني , لا صلة له بالدين و لا بالوعظ مهمته فقط أن يروض الغرائز المتوثبة المشبوبة, و يعاون هؤلاء الشباب على حل مشاكلهم الجنسية و النفسية و تنظيم سلوكهم . هكذا تقوم الكنيسة بدور هام في الخدمة الاجتماعية التي هي في نظرها جزء من رسالتها العامة.

إن الدين يتفاعل مع الحياة و العلم , و يعلم أن حيويته متوقفة على استمرار التطور فيه بحيث لا يقف و الفكر يزحف.

و كلما كانت حياة الفرد خصبة, متنوعة, معطية, كانت جديرة باهتمامه الدائب, و كانت عوناً له على تفوقه المثابر. و حياة الفرد لا تستمد سعادتها و ازدهارها من عزلته و انفصاله بل من ارتباطها الوثيق بحياة أمته و الناس من حوله. من أجل هذا لا يتحتم عليه أن يكون فظاً في اختيار حياته وحدها , بل و في اختيار الحياة في وطنه , و في عالمه. و سبيله لها أن يكون له رأي في نوع هذه الحياة .. و هو لكي يكون هذا الرأي لا بد و أن يستهوي بآراء جميع الأفراد الآخرين. و الفكر الجوال في كل واد , و الكلمة الخالصة من كل التواء هما السبيل الأوحد لإيجاد الرأي النافع و الاختيار السديد. إن الحياة تتقهقر كثيراً حين يخف حماس الناس لها, و حين يتضاءل اهتمامهم بها.

و في استبيان للشباب في لبنان أجري عام ١٩٩٥ حول التمسك الفرد بدينه سنأخذ بعض الأجوبة التي تفي بما طرحناه:

١- هل أنت مقتنع بديانتك , أم تشعر أنها مفروضة عليك بحكم التقاليد؟

نعم مقتنع ٨١ % مفروضة ١٩ %

٢- هل تجرؤ على تغيير دينك إن اقتنعت بدين آخر أكثر من اقتناعك بدينك؟

نعم ٦٠ % لا ٤٠ %

٣- إلى أي درجة تهتم بموضوع الدين ؟

قليلاً ٥٤ % كثيراً ٣١ % لا اهتم ١٥ %

٤- هل أنت متعمق في مبادئ دينك؟

نعم ٤٥ % كلا ٥٥ %

٥- هل تحترم ديانات أخرى؟

نعم ٩٣ % لا ٧ %

٦- هل تحاول إقناع الآخرين بدينك؟

نعم ٤٠ % لا ٦٠ %

٧- هل تحاول تطبيق مفاهيم دينك حرفياً؟

نعم ٣٢ % لا ٦٨ %

٨- هل تهتم بأقوال رجال الدين؟

نعم ٣٧ % لا ٦٣ %

٩- هل تمارس شعائر دينك؟

نعم ٢٨ % قليلاً ٧٢ % لا ٥ %

١٠- هل تعتقد أن الإيمان الحقيقي يوجب الممارسة؟

نعم ٦٥ % لا ٣٥ %

١١- هل تعتقد أن دينك يقيد تحركاتك؟(١)

نعم ٤٢ % لا ٥٨ %

و يتضح من هذه البيانات أن هناك جهل معرفي بالواجبات الدينية , سواء عند المسيحيين و المسلمين , و أن هناك ثغرات يجب تلافيها بتجديد الخطاب الديني و بعمل المؤسسات التابعة له.

و يرى المطران (ثم البطريرك) لطفي لحام أن أزمة الهوية في الكنيسة المسيحية ظاهرة في مختلف قطاعات الحياة: في الليترجيا , ثم في اللاهوت , ثم في الراعويات, في العمل المسكوني , في معنى التراث , في مستوى التاريخ , في تربية الشعب و الكهنة.(٢)

إن المجتمع هو المفتاح الأساسي لفهم الدين, و ليس العكس , باعتبار أن القيم و المعتقدات و التصورات الدينية في نصوصها كما في تفسيراتها تنبثق من الواقع الاجتماعي في تطوره التاريخي, أي في مكان و زمان محددين.

١- صحيفة النهار – ملحق الشباب – بيروت ١٩٩٥/٧/١٨

٢- مجلة المسرة – حريصا تشرين الثاني السنة ١٩٩١/٧٧ ص ٩٣٥

إن الانغلاق التام عن العالم الخارجي غير مطلوب , فكل الأنساق المغلقة يزداد فيها التجانس و تفتقد التمايز , مما يؤدي إلى قلة تنوع السلوك و الاتجاهات و المعتقدات , و يكون قيداً شديداً على الإبداع و التطور , و يقتضي تعظيم التمايز , المحفز للإبداع , أن يكون النسق مفتوحاً للتفاعل مع البيئة الخارجية و مضبوطاً لتحقيق غايته.(١)

و يدرس التاريخ قصة تحرك الإنسان في الأراضي التي يعيش عليها منذ عشرات الآلاف من السنين و يتوقف عند العلامات البارزة في تطور هذا الإنسان التي تشكل محطات انتقال من مرحلة إلى أخرى عبر عصوره المختلفة.

إن التعقل و الاستلهام هو الصورة الساذجة للتبصر بأحداث التاريخ و هو ما تطور فيما بعد ليصير (فلسفة للتاريخ) و تفسيراً لأحداثه , فالفعل الحضاري لم يعد ممكنا أن يكون فعالاً في غياب هذه الفلسفة و ذلك الجهد العقلي التفسيري الإلهامي و صارت دراسة التاريخ (لا يمكن أن تتم إلا من خلال فلسفة عامة تكون تابعة للموقف الإنساني العام الذي يقفه الدارس بنظرته للكون و تفسيره لحركيته و علاقاتها). (٢)

1- Alfred Kuhn: The logic of social systems (San Fransisco, calif: Jossey- Bass, 1974) P.P 434

٢- يوسف الحوراني: الإنسان و الحضارة المكتبة العصرية – بيروت ط ٢ ١٩٧٣ ص ١٩٥

الحوار المسيحي الإسلامي

الحوار بين الأديان , في عالمنا العربي , لا بد له من أن يتم على الصعيد الاجتماعي و الثقافي و الحضاري و الروحي , قبل أن يتم على الصعيد الديني و العقائدي.

و من الأفضل لو تنافس أبناء الوطن العربي على معرفة متبادلة , فيدرس المسيحي التراث الخاص بالمسلمين(من قرآن و تفاسير , و سيرة و حديث , الخ..) و يدرس المسلم التراث الخاص بالمسيحيين (من إنجيل و تفاسير, و شخصية المسيح كيف فهمت , و العقائد كيف شرحت, الخ).

و قد يكون من العبث في أي حوار , ادعاء مقارنة السلوك الفعلي لأحد المتحاورين بالمثال الأعلى الرائع الذي يتوسمه الطرف الآخر: فالصدق و النزاهة يقتضيان أن يعرف الإنسان كيف يكتشف في داخل كل سلوك ديني, التحقيق الأول للمثال الأعلى الذي يؤكده إيمان كل واحد . فالمؤمنون مدعوون هكذا إلى مقارنة السلوك بالسلوك , و التساؤل, في الوقت عينه, عن المثال الأعلى لدى الفريقين . فالحوار عند المسيحيين إنما هو سُنَّة ممعنة في القِدَم تعود إلى يسوع المسيح نفسه, حيث يستعمل المسيحيون اسم يسوع و معناه بالعبرانية : الله يخلِّص , و الكلمة في اليونانية إييسوس. إن المسيح و إن كان قد أرسل أولا إلى (الخراف الضالة من بيت إسرائيل) فقد أراد دوماً تخطي الحواجز الاجتماعية و السياسية و الدينية . فكلَّم السامرية, و أصغى إلى السورية السريانية, و أعجب بإيمان قائد المئة الروماني , و أشاد بتوبة (أهل نينوى) و حكمة (ملكة الجنوب) . فلذلك كانت دعوة بطرس , أول رسله , تصلح أيضاً للمسيحيين من أبناء هذا العصر, عندما يقول: ((كونوا على استعداد دائم لتجيبوا كل من يسألكم حجة عن الرجاء الذي فيكم , و لكن بوداعة و احترام, و ليكن ضميركم صالحاً)) (١ بط ٣, ١٥-١٦). أما المسلمون فيعلمون أن كتابهم يشجعهم منذ البداية على إقامة الحوار مع مخاطبيهم من المؤمنين: (و لا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسنُ) (القرآن ٢٩, ٤٦) بعدما دعا الرسول العربي إلى مثل ذلك

قوله : (أدعُ إلى سبيلِ ربّك بالحِكمَةِ و الموعِظةِ الحَسَنَةِ و جادلهُم بالتي هي أحسنُ) (القرآن ١٦, ١٢٥).

و يشمل الحوار كل مستوياته , و بجميع مكوناته, و ليس بالإمكان حصر لقاء المسيحيين و المسلمين في نطاق حلقات من الاختصاصيين , أو زيارات يقوم بها رؤساء الجماعات . فالحوار يشمل جميع أشكال الحياة , و يوجد في كل مكان يعيش فيه المسلمون و المسيحيون معاً, و معاً يعملون و يحبون و يتألمون و كذلك يموتون.

و خصوصية الحوار ليست في موضوعه, و إنما في نمط الوجود و العمل الذي هو تقبل الآخر و إصغاء إلى كلامه , و قبول اختلافه. و حينئذ لا حاجة أن يكون الإنسان عالماً كبيراً , أو لا هوتياً حاذقاً , أو حتى مؤمناً قطع شوطاً بعيداً على طريق الصلاح و القداسة , و إنما يلزم و يكفي أن رجلَ إيمان و رجاء, و استقامة قصد, و محبة فعلية . فالجميع مدعوون طريق الصلاح و بعث العلاقات العائلية نفسها إلى العمل اليدوي, متقاسمين اختبارات المهن التقليدية نفسها. إن مقاومة التخلف تستلزم تعبئة جهود المسيحيين و المسلمين , المواطنين منهم و الغرباء, على السواء, لتغليب قيم العدالة الاجتماعية و المصلحة العامة . و عندما يقوم الحوار بين العقائد و الاختبارات , فإنما يتم من خلال أشخاص يعتنقونها أو يعيشونها, في تطور مسيرتهم الروحية المستمر. لذلك لا تكفي معرفة الآخر لإقامة الحوار الحقيقي معه, وإن اكتملت بالمشاركة في اللغة و الثقافة , و فهم التراث الديني الذي يغذيه . فالحوار يقتضي تلاقي الأشخاص و ذلك يفترض أن هؤلاء يريدون أن يقبلوا بعضهم بعضاً , و أن يتفاهموا و يتعايشوا و يتقاسموا و يجترئوا أو يخاطروا, لأن استقبال المسيحيين و المسلمين بعضهم بعضاً يفترض قبول بعضهم للبعض الآخر, على ما بينهم من اختلاف , و احترام بعضهم بعضاً في تنوع تراثهم الديني , و محاولة اكتشاف الآخر في جدة اللقاء, سعياً إلى المزيد من التقدير و الحب له.

من هنا يجب أن يبدأ كل حوار , فالمتحاورون يقيمون حوارهم على الحقيقة , يضمنون له النمو الواقعي المطلوب , إذا تم الاعتراف بما لكل منهم من انتساب ديني خاص إلى تاريخ علاقاته الشخصية بالله في إطار جماعته الأصلية , مع ما ينطوي عليه ذلك من ارتباط فكري و عاطفي.

معرفة الآخر

على المتحاورين أن يتحرروا مما عندهم من عُقد النقص أو التفوق و يكونوا أكثر تقبلاً لما قد يبديه الآخر من توضيحات لذاته أو لتراثه الديني , بحيث يصبح كل واحد في النهاية قادراً على أن يضع نفسه في موضع غيره.

إن صورة المسيحية في الإسلام لها وضعان و ينظر إليهما من زاويتين كما يذهب الشيخ محمد مهدي شمس الدين:

الأولى: هي الوضع المقدر في القرآن و السنة الصحيحة , و قد تضمن القرآن الكريم نصوصا عامة و مفصلة عن المسيحية و عن نظرة الإسلام إليها , حدد فيها الوحي القرآني صورة المسيحية في الاعتقاد الإسلامي , و حدد صورة المسيحية كما هي ممثلة في المسيحيين و مكونة للأمة المسيحية في الواقع القائم.

و هي بهذا الاعتبار جزء من الإيمان الإسلامي و بالاعتبار الثاني جزء من الحياة الإسلامية , و جزء من نظام علاقات المسلم بالآخر غير المسلم, مع امتياز للمسيحية و المسيحيين من جميع ذوي الأد يان الأخرى.

الثانية: و هي وضع المترسب في الخيال الشعبي و الذاكرة الجماعية و الحالة النفسية و الناتج عن مكابدات الحياة , و من ردود الفعل على السياسات البيزنطية طوال مراحل التاريخ و غيرها منذ فجر الإسلام و صدر الإسلام إلى العصر الحديث, مرور بالحروب البيزنطية الإسلامية و الحروب الصليبية , و الهجمة الغربية على العالم الإسلامي في عصرنا, بدءا من الاستعمار القديم و انتهاء بمفاعيل النظام العالمي الجديد و العولمة .

و طيلة هذه المراحل من علاقات المكابدة و الصراع كان للكنائس الغربية دور داعم أو متعاطف مع القوى الغربية المستقوية بسلاحها و تجاربها و أساطيلها و تكنولوجيتها. أما المواقف القليلة والمتأخرة و التي اتسمت بشئ من العدل في النظر إلى بعض قضايا المسلمين بسبب المراجعة التاريخية أو صحوة الضمير , فأنها لم تكف لتهد نة صور الذاكرة المرة و التي يستثرها على الدوام تفاقم الملل و اللا توازن في العلاقات الدولية

و العالمية اليوم. (١)

إن مثل هذا التصريح يجعل باب الحوار واجبا بل ضروريا, إذ كثيراً ما يجهل المسلمون و المسيحيون بعضهم بعضا , و إن حسبوا أحيانا أنهم على شئ من التعارف . فلا بد , و الحالة هذه , من معرفة موضوعية تستدعي الإعلام المتبادل بكل وجوه الاختبار الإنساني و الروحي , على ألا يكون ذلك عمل العالم الاجتماعي فحسب, أو الباحث الصرف في الشؤون الإسلامية أو المسيحية . و المطلوب هو التلاقي في سبيل التفاهم و معرفة كل واحد للآخر , لا كما هو فقط , بل كما يريد أن يكون أيضاً . فمن واجب المسيحي إذن أن يستوضح الثقافة الإسلامية , و عِلم الكلام , و شهادات المتصوفين المسلمين, و للمسلم كذلك أن يستطلع المسيحيين مضمون ثقافتهم , و جملة علم لاهوتهم, و نجاوى صوفييهم. و أن يعترف بعضهم ببعض في أصالتهم,و يتبادلوا الشهادة لأمانتهم , أن يتلاءموا بعضهم مع بعض , و يخترعوا مواقف تعزز الوحدة, و يتعاونوا حيثما يشعرون بأنهم ملتزمون القيم نفسها. و أن لا يمر الحوار بالمراحل ذاتها و لا يقاس بالمقاييس نفسها في كل زمان و مكان. فإذا كان على المسيحيين و المسلمين جميعاً أن يغترفوا من كنوز كتبهم المقدسة و تراثهم و مصنفاتهم الزهدية و الصوفية, فهم يعلمون أيضاً أن العوامل الاجتماعية و السياسية و الأخلاقية , و الإيديولوجية و الثقافية , قد طبعت ذ لك كله بطابعها و وسمته بالنسبية.

المعاني السامية بين الديانتين

إن الاعتراف لكل فرد للجماعة التي ينتمي إليها بما يحق لهم من أفضال و ما يختصون به من فضائل يقوي حظ الحوار في بلوغ تكامل أسمى . و في ذلك يرى المسلمون أن الإسلام لا يستحدث شيئاً , بل يجدد التوحيد الصحيح , بإعادة الإنسان إلى ما يجب عليه

١- صحيفة السفير- بيروت ٢٠٠٠/٧/٤ ص ١٩ الشيخ محمد مهدي شمس الدين

من أمانة الله, بحكم الميثاق السابق الأزل المقطوع قديما مع خالقه (إذ أخذ ربك من بني آدم من ظهرهم ذريتهم و أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا)(القرآن ٧, ١٧٢).

و من الدراسات التي تناولت مسألة الحوار بين المسيحيين و المسلمين ما كتبه الأب موريس بورمانس حيث قال:

يعتقد المسلمون أن القرآن الذي كتب باللغة العربية بحسب الآية : (و هذا لسان عربي مبين) (القرآن ١٦،١٠٣), هو الرسالة التي بلغها الله لمحمد حين كان يخطب في الناس بمكة و ا لمدينة. و لذلك يميزون فيه السور المكية من السور المدينة, إذ هي مرتبة فيه لا بحسب التسلسل التاريخي بل بحسب الطول المتناقص . و هو يتألف من ٦٢٣٦ آية مجموعة في ١١٤ سورة , بعناوين ذات دلالة. و ذلك يجعل حجمه كحجم كتاب العهد الجديد. و القرآن في نظر المسلم المؤمن هو التنزيل الأخير و الوحي النهائي و الكامل للكتب السابقة (التوراة و الزبور و الإنجيل) , التي لم تكن سوى نسخ أولى ناقصة أو محرفة لكتاب محفوظ منذ الأزل لدى الله, على (اللوحة المحفوظة) تعبيرا عن (الكلمة) نفسه.

إن القرآن بحكم كونه (وحيا) يأتي تواً من الله و (تنزيلا) منجما من السماء , يشارك بمضمونه و معانيه , إن لم يكن بصيغته التعبيرية , الكلام الإلهي هذا في خاصية كونه غير مخلوق . و لذا لا يمكن بالتالي أن ينظر إليه, بحسب الإسلام الأصيل كأنه كتاب ألف بإلهام من الله فقط. فالله وحده واضعه, و ليس النبي محمد سوى الراوي الناقل , دون أن يكون له أي مشاركة في التأليف . و لذا فالقرآن معجزة لا تجارى إلى الأبد : (قل لئن اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بميله, و لو كان بعضهم لبعض ظهيرا) (القرآن ١٧،٨٨) . إن القرآن المتميز بجمال صيغته الأدبية, و تناغم أسجاعه , يمتع الحس الجمالي عند المسلمين . كما يلبي حاجتهم إلى التأمل في الآيات المعبرة عن الله و الإنسان و الكون . و هم يرون فيه كلام الله الأزلي الذي أبدي في زمان البشر, حتى ليظهر القرآن و كأنه يؤدي عندهم وظيفة تماثل تلك التي يضطلع بها يسوع المسيحيين لدى المسيحيين : إنه في رأيهم, كلام الله صار كتابا.

و يضيف الأب بورمانس: و القرآن الذي يحفظه المسلمون عن ظهر قلب منذ الحداثة, و الذي لا تنسى تذكرهم به الوسائل العديدة لإذاعة الثقافة العربية الإسلامية, هو

للمسلمين زاد إيمانهم الأول, و يبقى , في الوقت نفسه, إحدى القواعد الأساسية للحضارة العربية. و في سبيل التبحر في فهمه على وجه أفضل, طوّر المسلمون العرب علومهم النحوية و اللغوية, و أبحاثهم الفلسفية و الكلامية. و لا بد من الاعتراف بأنهم أبدوا في ذلك من حدة الذكاء , و وفرة الحكمة ما يضفي على كل تأمل صادق في آيات القرآن المزيد من الاحترام. (١)

و هناك تشابه كبير بين مضمون القرآن مع مضمون الكتاب المقدس, و لا سيما في العهد القديم . و نص القرآن , و إن اختلف أحيانا مع نص الكتاب المقدس اختلافاً قاطعاً, أو بلغ حد نفي بعض تعاليمه الأساسية , فهو يشارك مع ذلك في المضمون بحد ذاته الذي تنطوي عليه الرسالة الكتابية في العهد القديم , بل في العهد الجديد . و عكوف المسلم على التأمل فيه باستمرار , و على استجلائه لمصلحته الخاصة أو في الجماعة, و على العمل به فردياً و جمهورياً , مسلك ديني يسلكه اليهود و المسيحيون منذ أمد بعيد حيال كتبهم المقدسة. ((و القرآن يقسم أهل الكتاب, أولي العلم , إلى فئتين : أولو العلم (الظالمين) أي اليهود (العنكبوت ٤٦) و أولو العلم (المقسطين) أو (المحسنين) أي النصارى من بني إسرائيل. فهؤلاء النصارى المحسنين المقسطين هم الذين يدعون إلى الإسلام)). (٢)

و يبدي القرآن للمسلمين أبعاداً جليلة لشخصية عيسى* : (المسيح عيسى ابنُ مَريَمَ) هو نبي و رسول و (عَبدُ الله) معنى الكلمة, (الزكِيُّ) , (المُبارَكُ) , (البَرُّ بوَالِدَتِهِ), و لم يجعله الله (جَبّاراً شَقِيّاً) , بل بالأحرى (مِنَ الصّالحينَ) , و (مِنَ المُقربين), لأنه يسمع الله يقول له: (اذكر نِعمَتي عَلَيكَ) (القرآن ٥، ١١٠) إذ خلقه من تراب مثل آدم, و بعث يحيى السابقُ مُصَدِقاً بأنه (كَلِمَةٌ) مِنَ الله (ألقاها إلى مريم) , إذ يقول الله : (نَفَخنا فِيها مِن رُوحِنا) (القرآن ٣١، ٩١) و يؤكد مرتين: (أيَدنَاهُ بِرُوح

١- مجلة المسرة- حزيران- آيار- العدد السنة ٧٣ /١٩٨٧ ص ٣٠٥ الأب موريس بورمانس ترجمة المطران يوحنا المنصور. و علي أن أنوه هنا بمدى أهمية هذه الدراسة.

٢- الأب يوسف ندره الحداد (الأستاذ حداد) : القرآن دعوة " نصرانية" منشورات المكتبة البوليسية – بيروت الطبعة الثالثة ١٩٩٣ ص ٣٦

* عيسى لفظة قرآنية و تعني المسيح , و بالتالي دارجة على لسان المسلمين.

القدس) (القرآن ٨٧،٣ و ٣٥٣،٣). و في الختام : (إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله و كلمته ألقاها إلى مريم و روح منه) (القرآن ١٧١،٤).

إن المسلمين يحيطون مريم الوالدة في ذاتها و في رسالتها بإجلال كبير, بسبب ما يقوله عنها القرآن , فهو يتحدث عن (مولدها) و (اعتكافها في المحراب) . و عن (البشارة) و (مولد عيسى) , و عن (الاتهامات التي عانتها مريم العذراء , و ما لحياتها من أعلى المعاني و أسماها) , إذ أعاذ تها أمها هي و (ذريتها) بالله من الشيطان الرجيم (القرآن ٣٦،٣) . بل هناك أحاديث تؤكد أن عيسى و أمه وحدهما معصومان من كل خطيئة.

و صورة مريم القرآنية رائعة , لها في المصادر النصرانية شبه و قرابة. و من المصادر : مقدمة إنجيل يعقوب, إنجيل الطفولة, كتاب ميلاد مريم, إنجيل متى , إنجيل لوقا, و إنجيل العبراني. فالتقليد المريمي الواسع الانتشار, منذ بدء المسيحية , جعل موقف القرآن من مريم موقفا قريبا جدا من مواقف النصرانية و تعاليم آباء الكنيسة و الكتب المنحولة و الرسمية سواء.

و المسلمون بعد القرآن, لا يزالون يكرمون مريم و يعظمونها و يقدسونها و يطون شأنها . فهي المرأة الوحيدة التي يذكرها القرآن باسمها (٣٤ مرة) . و هي اختارها الله و ميزها و طهرها و أعلاها فوق النساء العالمين.. لكأنه سبق و أعلى عصمتها من الخطيئة , و أعلن حبلها من غير دنس (١) . و قد ورد في القرآن أنه (قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك و طهرك , واصطفاك على نساء العالمين) (القرآن ٣, ٤٢) . فهي إذن عذراء مؤمنة قانتة , و هي مع ابنها (آية للعالمين) (القرآن ٢١, ٩١) . ذلك كله يسوغ للمؤمنين جيلا بعد جيل أن يعظموا مريم المرأة الكاملة التي صنع الله فيها العظائم , لأنها قبلت أن تكون (أمة الرب). و للنبي في قداستها حد يث (٢) : ما من مولود يولد إلا و الشيطان يمسه حين يولد , فيستهل صارخا من مسه إلا مريم و ابنها (تفسير البيضاوي على ٣٦/٣).

١- أبو موسى الحريري: المسيحية في ميزان المسلمين سلسلة لأجل المعرفة ديار عقل – لبنان ١٩٨٩ ص ١٣٩

٢- أبو موسى الحريري: المسيحية في ميزان المسلمين مرجع سابق ص ١٣٩

التقارب الروحي بين الديانتين

يبغي المسيحي اليوم أن يماثل بسماحته الجماعات الرسولية الأولى , في لقائه الآخرين مع اختلافهم ، يعلم اليوم أن العهد الجديد ينطوي على مواقف علمية متنوعة إزاء غير المسيحيين. و لن يفوته الرجوع إليها بحسب الأوضاع المختلفة التي يعرفها , أو الميول الروحية التي يشعر بها, مارا أحيانا من حال إلى آخر, أو عانشا الاثنين في آن واحد. و هذا يدعو المسيحيين إلى النظر باحترام إلى عبادة أخوتهم المسلمين, إذ المعبود الواحد هو الله الحي القيوم, فالمسلمون و المسيحيون , و إن اختلفت عندهم و تنوعت الصيغ و الشعائر , في الصلاة و الصيام و الزكاة و الحج, يتذكرون أن الابتهال و السبحات , و الاستشفاع و التأمل و الاعتكاف , عادات قديمة عندهم جميعا , فيما يجد دون باستمرار طاقاتهم الروحية و عزماتهم الأخلاقية . و قد تقودهم أحيانا الرغبة في الابتهال إلى الله معا أن يقتبسوا , كل واحد من تراثه الخاص , الكلمات و الحركات التي قد تعبر , باتفاق الرأي عن موقفهم في الظرف الحالي أمام الله, دون أن يسئ ذلك إلى الشعائر القائمة في عبادة الاثنين.

و هكذا تبدو رغبة المسيحيين و المسلمين في أن يقبل بعضهم بعضا, و أن يتفاهموا و يتعايشوا, و يشارك بعضهم بعضا, و يتجرأوا و يخاطروا, تحدوهم بواعث عميقة فيهم على الالتفات إلى ما ينطوي عليه حوارهم من الأبعاد الدينية , بالمعنى الحصري. أو ليس في إيمان الآخرين ما يحمل المسيحي , على المزيد من التساؤل عن تاريخ الخلاص, و معنى الديانات التاريخية الكبرى , و ما يظهره الله فيها من أشكال الصلاح و القداسة بألف طريقة مفاجئة؟ أما المسلم , أفليس هو مدعو إلى اعتبار المسيحيين محاورين , لهم مزية أهل الكتاب. و هكذا فالتفكير المسيحي مدعو إلى إعطاء مكانة خاصة للإسلام , تلك الديانة التوحيدية, ذات النموذج النبوي , و التي لا تخلو من روابط من التراث الحي اليهودي و المسيحي. أفلا يبدو له دين الإسلام , تارة كواحد من التعابير الإنسانية الكثيرة و العظيمة عن التماس الله من خلال إسلام النفس و القلب و العبادة المتطلبة,

و طورا كتمهيد خاص لملاقاة روحية مع من هو إله إبراهيم و موسى و يسوع , أو كمكان متميز لجميع أولئك الذين في الواقع يبلغون بفضله إلى رحمة الله , و بذلك عينه إلى الخلاص.

و الإسلام و المسيحية د يانتان شاملتان في قصدهما الخلاصي بجملته. فالمسيحي يعتقد أن كل إنسان مدعو إلى معرفة الله الآب بالتمثل على وجه غامض و عجيب بالكلمة المتجسد , يسوع المسيح . و المسلم يوقن أن كل إنسان معد في عمق كيانه ليعيش في الإسلام الأكمل لله. (١)

سوء فهم الحوار

إن الحوار المسيحي الإسلامي ضروري في الوقت الراهن , لأن الصحوات الدينية التي نشهدها في الوقت الحالي تشكل خطرا على كل من الجانبين , هذا إذا لم تشكل تهديدا مباشرا لوجودهم. و لا يمر يوم إلا و نسمع أو نقرأ تفسيرا لهذه الظاهرة يتسم باللا تاريخية, إذ يرى فيها تأكيدا لجوهر (أبدي) في هذه الملة أو تلك.

و تأتي مثل هذه المواقف من قراءات غير دقيقة لكل من الإسلام و المسيحية من مثل ما سوف نورده:

تختصر مواقف القرآن من المسيحية و عقائدها في موقفين : موقف فيه المسيحيون هم أهل مودة و إحسان ,و موقف فيه هم أهل كفر و شرك . و ورث المسلمون , عن القرآن , موقفه الثاني , و قالوا بأن مسيحيي الموقف الأول قضي عليهم و على إنجيلهم و عقيدتهم المتعددة, و مسيحيو مجامع الكنيسة , و تباع القديس بولس , هؤلاء قضوا على عيسى و إنجيله الحقيقي. (٢)

١- مجلة المسرة- حريصا العدد آذار- نيسان السنة ١٩٧٣ ص ٢٠٥ الأب موريس بورمانس ترجمة المطران يوحنا منصور مرجع سابق

٢- سماحة الامام الاكبر محمد الحسين آل كاشف الغطاء: التوضيح في بيان حال الأنجيل و المسيح دار الغدير- بيروت ط ٢ ١٩٨٠ توزيع التوجيه الإسلامي ص ٢٦

و الموقف الثانـــي يتناول العـــرب و الإسلام بشكل استفزازي لا يصـح تركـه دون مناقشته. و كما هو معلوم فإن العرب كانوا أول من دعـا إلـى الإسلام , و ان بعضـهم علـى الأقل كـان يعتبره دينا عربيـا صرفـا. و قـد رأى محمـد البدري: إن العرب فـي اندفاعـهم الـهادر كـانوا يحملون فكرة العولمة تحت الراية الإسلامية لفرضها بضم كل الأراضي و الشعوب بأقصى ما يستطيع المد العربي الوصول إليه . و لم يقف ذلك المد إلا بعد أن سرت عليه نفـس القوانين التي سرت على كل من سبقوه من غـزاة و فـاتحين, فمـع الابتعـاد الدائـم للجيـوش و تسـرب بعضها إلى مجتمعات حضارية مغايرة أكـثر رغدا مـن نقـاط الانطـلاق و دخـول الغربـاء إلـى صفوف المقاتلين , و هم ليسوا بنفس الحماس و الهوية ثم الأهم هـو الخـور و الفسـاد الـذي أصاب القلب مركز الانطلاق من مسلسل اغتيال للخلفاء و الحكام و تنازع الجاه و السـلطان , و هو ما فتئ ينخـر فـي الأمـة الإسـلامية مـع مقتـل الخليفـة الثـاني و اسـتمراره حتـى تفتـت العولمة العربية إلـى كيانـات سياسيـة متعارضـة و متضـادة بين شرق هو خليـط أمـوي و عباسي تنخره المحن و الثورات و الانتفاضات على ظلم و جور , و وسط فاطمي في مصر و غرب أموي كما في الأندلس , لا رابط إلا قراءة كتاب الله و أحاديث رسوله. (١)

إن هذا الموقف يرث عند البعـض, علمانيـة خائبـة تتضمن افتراضـا أن العلمانيـة و الهروب من الماضي تتضمنا وحدهما تحديث البلاد و العباد و أن الإسلام محكـوم لا محالـة بمبدأ الدمج بين الدين و الدنيا و الدولة .

و التعبير الأكثر شيوعا لأقلوية تتحكم بها حمى البقاء فـي مواجهـة أخطـار- أكـانت فعلية أم مبالغا في تقدير أهميتها أم متوهمـة, هـو العزوف . إنـه يتمثـل باسـتقالة تقـود إلـى الهجرة أو إلى الانطواء على الـذات. فـي الحالـة الأخيرة , تستبطن الهامشية و فـي الوقت نفسه يجري التحرر منها من خلال النجاح الفردي في ميـادين النشـاط الاقتصـادي و الكفـاءة العلمية و الفنية. لكن النجاح الفردي لا يرضي , وحده , أهل الإيمان.

و حين يدرس المسلمون و المسيحيون معا سوف يجدون السبيل إلـى تنميـة حـوار أولي و عملي في شأن الثقافة التي يجب أن تفهم و تفسـر و تنقـل , و الذيـن يضطلعـون مـن بعد , بإيجاد تلك الثقافة أو تجديدها أو تغييرها , يقودهم الأمـر إلـى طبعـها , بعمـق متفـاوت,

---

صحيفة الأهرام – القاهرة ٢٠٠٠/٤/٢٤ ص ٢٦ محمد البدري : عروبة مصر .. دواعي في إعادة النظر في الهوية الحالية

بالطابع الديني الذي يوفره لكل واحد إيمانه, سواء أكان الموضوع بحثا علميا أم تعبيرا أدبيا أم تفكيرا فلسفيا. و عندئذ تسنح الفرصة للمسلمين و المسيحيين لكي يبرهنوا على ما تستطيع الروح الإنسانية لدى الفريقين أن تفعل في سبيل بناء الوطن.

لقد توصل طارق البشري في دراسته للعلاقات بين المسلمين و المسيحيين في مصر إلى أن أخطر ما يتهدد المجتمع هو النيل من تماسك جماعاته , و إلى أنه يستطيع دفع الأذى عن نفسه فقط في إطار نمو الجامعة الوطنية و ليس الجامعة الطائفية. (١)

التمعن في دراسة الديانتين يزيل الشك

إننا ندعو عبر هذه السطور أن تبدل النظرة السلبية نحو المسلمين و المسيحيين, و أن لا نشدد على نقاط الخلاف التي تفرق بين المسيحية والإسلام , علينا أن نسلط تفكيرنا على النقاط المشتركة التي تجمع الاثنين و بدل العودة إلى الماضي المشحون بالخصومات و الحروب الدينية نتطلع إلى مستقبل مشرق يعمل به الاثنان معا لبنائه على روح التفاهم و الأخوة. فيقرأ المسيحيون القرآن الكريم و المؤلفات الدينية الإسلامية ليس فقط بعين النقد و الطعن, ناشرين المجلدات الضخمة مظهرين للعالم معايب القرآن و أخطاءه التاريخية و تناقضاته, فهنالك مجلدات ضخمة كبيرة نشرت أيضا تتناول الأغلاط التاريخية و التناقضات التي تحتوي عليها كتب المؤلفات البشرية عبر تاريخ المسيحية. (٢) فعلى المسيحيين , بدل نظرة الطعن هذه , أن نزيل البرقع عن الأعين و أن يتم التطلع إلى الإسلام بعين جديدة , عين القلب و المحبة , و أن تنشر الكتب و المقالات عما هو إيجابي و بناء في

١- طارق البشري: المسلمون و الأقباط في إطار الجامعة الوطنية الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٩٨٠ ص ٣-٦

٢- في المقابل علينا أن لا نغفل مدى التأثير السلبي في مؤلفات أخرى نشرت و لا تخدم أهداف الدين الصحيح مثل ما قاله العلامة ابن قيم الجوزية عن النصارى في كتابه (كتاب هداية الحيارى) في اجوبة اليهود و النصارى, توزيع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة, المملكة العربية السعودية ١٣٩٦هـ ص ٢٢ راجع: شريف محمد هاشم : الإسلام و المسيحية في الميزان بيروت ١٩٨٨ الطبعة الأولى ص ٢٧

الدين الإسلامي و في القرآن , هذا الكتاب الذي غذى بروحانيته الفياضة منات الملايين من المسلمين و غير المسلمين , عبر التاريخ , و كان و لا يزال نورا للعدد الكبير من العائشين في ظلمات الوثنية يحملهم على ترك أصنامهم ليعبدوا الإله الواحد الرحمن الرحيم , يستسلمون بإيمان و خضوع و ثقة لأحكامه الربانية , يمتنعون عن المنكر و يحسنون للفقير و يطعمون الجائع و يصلون بورع و خشوع راكعين أمام الله ركعة الخاطئ الطالب الرحمة و المغفرة. و حين يتطلع المسيحيون بعين القلب إلى الإسلام و المسلمين يزدادون غنى روحيا بالاطلاع على كتابات فلاسفتهم و لاهويتيهم و رجال الروح عندهم و قد بلغ عدد كبير منهم قمة رفيعة من القداسة و محبة الله و الإنسان.

و لنا شاهد على ذلك الأب الفرنسيسكاني باسيتي ساني . فإنه في سني كتاباته الأولى عن الإسلام , كان دوما يقدم الحجج الراهنة ليبرهن أن محمدا وسيلة استعملها الشيطان لتهديم الكنيسة و لتركيز إله جديد في وجه الله . إلا أنه , سنة ١٩٤٧ , فيما كان يعيش في مصر العليا التقى فريقا من (فقراء) المسلمين غارقين في الصلاة . و فجأة شعر كأن نورا داخليا غمر كيانه وملأه إعجابا و محبة لهؤلاء المصلين . و منذ تلك الساعة بدأ ينظر إلى الإسلام بعين جديدة , و راح يبسط في كتاباته أن الله استعمل محمدا كأداة خلاص ليحرر شعوبا كثيرة من عبادة كثرة الآلهة و يكشف لهم الحقائق الجوهرية في التوراة و الإنجيل. (١)

و تبدو صورة الجماعات المسيحية و المسلمة في هذه المنطقة غير واضحة نتيجة ما تراكم عليها من إيجابيات و سلبيات , فصورة المسيحي عند المسلم و صورة المسلم عند المسيحي و ما يتخلل الصورتين من سراب لا تطابق الواقع . لهذا فإن الحوار الديني بين البشر حقل مفتوح مجرد من كل وسائل الدفاع , و يتطلب قدرا من الشجاعة الفكرية و طهارة القلب. و من الضروري لنجاح الحوار الإسلامي – المسيحي أن نعترف بالأولية للإنسان في اللقاء الحواري.

إن الحوار يفتقد كل معناه إذا انتقص أحد الفريقين من الآخر , إذا أتى من خلفية تعصبية تعمي عن أعين أحدهما كيف يقدر الآخر و يحترم دينه و لا يضع العداء فاصلا بين

١- مجلة المسرة – حريصا آيار- حزيران ١٩٩٢ الأب يوسف داغر مرجع سابق

هويتين سماويتين تتعايشان منذ ألف و أربعمئة سنة بالتآزر و التعاضد (١) دون التهكم أو التحريض . و أن يتفتح كل واحد من الطرفين على نزعة الطرف الآخر. فمن نادى بالتفتح, و أنكر التأصل في الإسلام , ضر و لم يأت بشيء , و من نادى بالتأصل و أنكر ضرورة التفتح على المسيحية , ضر و لم يفد , و كلاهما من المتميزين بالمتعصبين . و يفقد الحوار كل معناه إذا انتقص الفريق المسيحي إيمانه إلى حد جعله عموميات, و حجب عقائده التي تفترق عما يؤكده القرآن . فالمسيحي الذي يجب أن يلاقيه المسلم في الحوار , إنما هو ذاك الذي يعيش في اكتمال حياته الروحية و شمول عقيدته . و كذلك المسلم , في تمام عباداته و شمول عقيدته , هو الذي يدعى المسيحي إلى فهمه و محبته. (٢)

و الإنسان هو الذي يصنع قوالبه , و ليست القوالب التي تصنع الإنسان , و حتى لا يتجمد الإنسان في قالب واحد يلجأ إلى الحوار, الحوار هو كلمة السر التي تفتح العقول و الأبواب و منافذ الخروج من الأزمات.

و من الخطأ أن نضع في مقدمة المنطلقات و المعالم الفكرية للتيارات الدينية الجديدة , الحرص الواضح الذي لا يخطئه الباحث على توكيد حد أقصى من التميز و التفرد للإسلام و نظمه, ينفي عنه مشابهة أي عقيدة أخرى , و أي حضارة أخرى و أي نظام غيره, عرفه الناس قديما أو يعرفونه حديثا . و إذا كان الحرص على تقرير (التميز) أمرا مشروعا تماما لتحقيق (ذاتية الأنا الحضارية) , و لرسم حدودها داخل العقل و النفس جميعا و لوضع الخط الفاصل بين (الذات) و بين (الآخرين) و منع ذوبان تلك الذات في غيرها.. فإن الإسراف الشديد في تقدير هذا (التميز) و تلك الخصوصية و الإحساس بالضيق و الرغبة الملحة في الإنكار و الرفض تجاه أي دعوة لتقرير المشابهة أو الاشتراك في

١- حرم الأديب المصري نجيب محفوظ من بعثة إرساله إلى فرنسا بعد تخرجه من الجامعة عام ١٩٣٤ لأن مدير البعثات في وزارة المعارف المصرية آنذاك ابراهيم رمزي ظن محفوظ من الطائفة القبطية. راجع:
صحيفة الأهرام- القاهرة ٢٠٠٠/١/٣١ ص ٢٤ من مقال رجاء النقاش: نجيب محفوظ و الأقباط.

٢- يروي الدكتور عاطف العراقي أن أحد أصحابه (قام بتدريس الجغرافيا بدولة من الدول التي ما زال بعض رجالها يعتقدون بأن الأرض ثابتة و ليست متحركة, و قد ذكر له هذا الأستاذ أنه اضطر لتعليم الطلبة الحقائق الجغرافية, أن ينسبها إلى الكفار, فيبدأ محاضرته قائلا: يقول الكفار و العياذ بالله أن الأرض متحركة, و هكذا إلى آخر الأمثلة) .
عن : صحيفة الأهرام- القاهرة ١٩٩٢/٦/٢٦ د. عاطف العراقي.

الرؤية النظرية و الموقف العلمي مع الآخرين .. هذا الإسراف الشديد- فيما نرى – يحتاج إلى مراجعة و استدراك من جهة نظر تاريخية و اجتماعية و وجهة نظر إسلامية – مسيحية خالصة من ناحية أخرى.

الثقافة السورية المسيحية

ليس من يجهل أن المسيحية انطلقت من هذه الديار السورية لتنشر أنوارها على العالم شرقاً و غرباً ، و تاريخ مجمل كنائسها يشهد أنها ترجع بنا إلى فجر المسيحية، و على أرضنا عقدت المجامع المسكونية المسيحية ، العا لمية، بما تركوا من مطولات في شؤون الدين من عقيدة و أسرار و نسك وحياة رهبانية و روحية على وجه الإجمال . فنشأت الثقافة المسيحية التي كان لها تأثيرها الفاعل في كل مجالات الحياة . و من بإمكانه أن يتناسى أسماء لمعت في سماء الكنيسة السورية مثل ما أفرام و باسيليوس و غريغوريوس و فم الذهب و كيرللس و أثناسيوس و غيرهم كثير، من الذين لا تزال مؤلفاتهم مراجع قيمة تنير سبيل المؤمنين و الباحثين عن حقائق الإيمان المسيحي ، هذا بالأمس البعيد.

و لكن ما لبث أن ظهرت الانقسامات مع مر الزمن فمزقت قميص المسيح، فأصبحنا كنائس أحياناً متنافرة، لكي لا نقول متحاربة،بدلا من أن تكون متقاربة و متضامنة لخير المؤمنين ، و تمجيد الله ، و صدق الشهادة للمسيح ابن الله الحي، مخلص العالم الأوحد. و لدى اطلاعة الألف الثاني انقسمت الكنيسة الشرقية، و في منتصفه أنقسمت الكنيسة الغربية .

هذا الإرث الديني المسيحي جعل له ثقافة خاصة به، في البلاد السورية على وجه التحديد ، و في السطور التالية سنتناول هذا الجانب.

في تعريف الثقافة

يتجنب عنوان هذا الباب تعبير الثقافة أو الحضارة المسيحية، و لهذا وضع اسم سوريا للتفريق بين المسيحية كعقيدة دينية و المسيحية كثقافة و حضارة، فإذا كانت المسيحية كعقيدة ثابتة فالمسيحية كحضارة متحولة، و الثقافة – الحضارة هي ما يحققه

الإنسان في الطبيعة، و هي تعني ما يحدثه أو يبدعه أو يبدله الإنسان في كائن ما ، أو في أمر طبيعي يصبح له قيمة، فالثقافة السورية المسيحية التي ظهرت في سوريا على مدى ألفي عام هي من صنع الناس الذين قطنوا سوريا.

و يحدد الدكتور محمد جواد رضا أربعة مفاهيم عامة في محاولته لتسليط الضوء على مفهوم الثقافة و الحضارة بما يلي:

١- مذهب ينظر إلى الثقافة Culture و الحضارة Civilization على أنها مفهومان مترادفان

٢- مذهب آخر يفهم الحضارة بمعنى الثقافة عندما تتميز الأخيرة بدرجة أعظم من التعقيد و بعدد كبير من الخصائص المميزة.

٣- مذهب ثالث ينظر إلى الحضارة على أنها الثقافة حين تتميز الأخيرة بعناصر و خصائص متقدمة نوعياً Qualitatively و ممكنة القياس ببعض معايير التقدم.

٤- مذهب رابع يعارض الحضارة بالثقافة على اعتبار أن (الثقافة) ترمز إلى تلك الأفكار و الابتكارات الإنسانية المتعلقة بالأساطير Mythology و الدين Religion و الفن Art و الأدب Literature ، على حين أن (الحضارة) هي مجال الابتكارات الإنسانية المتعلقة بالعلوم و الثقافة و التكنولوجيا. (١)

و ينبع التمييز بين المعرفة و الثقافة من كون الأولى أقرب إلى العلم الموضوعي والثانية أكثر ارتباطا بالرموز، وهذه تستمد دلالاتها من عوامل نفسية و ذاتية. و كلما ضاقت الهوة بين الثقافة و المعرفة تصبح الثقافة أكثر شمولية و أشد ارتباطاً بما هي إنساني و كوني. و هذه هي حال المعرفة العلمية و الموضوعية، لأنها بحكم طبيعتها تنتمي إلى المشترك بين الناس و الجماعات . و الثقافة من ناحية أخرى ، ترتقي من المحلي إلى الكوني بمقدار ما تستند إلى قاعدة من المعرفة الموضوعية و بمقدار ما تتخذ الرموز فيها دلالات موضوعية فلا تبقى مجرد إشارات نفسية. (٢)

١- د. حسين ابراهيم و د. شاكر مصطفى و د. حامد عمار .. اعداد ، في فصل : الاعلان العربي للتنمية الاجتماعية . . المحور الثقافي. عن كتاب : اجتماع الخبراء التحضيري حول الاعلان العربي للتنمية الاجتماعية عمان ١٩-٢٢ ايلول ١٩٩٤ توزيع منظمة الاسكوا – عمان ١٩٩٥ ص ٢٧٠

٢- مجلة الاجتهاد- بيروت الفضل الشلق مرجع سابق

و في هذا الكتاب سنأخذ بمفهوم الثقافة حيث اعتبرت التعبير الكامل عن المجتمعات و حاصل تاريخها المجرد من الزمن، و الذي يستند إليه كل شيء تقريباً .. إنها تراث المجتمعات و إبداعها في أشكال مجتمعية و فنية و أدبية و غيرها.

إن الثقافة تكونها مجمل الخاصيات الروحية و المادية و الفكرية و العاطفية التي يتصف بها مجتمع أو فئة اجتماعية، و هي تشمل ، إلى جانب الفنون و الأدب، أنماط الحياة و الحقوق الأساسية للإنسان ، و نظم القيم و المعتقدات و التقاليد. غير أن هذا التعريف ، الذي تكمن ميزته الأساسية في شموليته، يكشف عن بعض المحدودية. فهو لا يشرح شرحاً كاملا ًالطابع الدينامي لكل ثقافة ، أو التغيرات و التفاعلات بين الثقافات. كما أنه لا يتطرق بما فيه الكفاية إلى التطور الذي تمر به الثقافات كلها بسبب ديناميتها الخاصة. (١)

و لما كانت الظواهر الثقافية تضرب بجذورها في أعماق التاريخ ، لا يسع المرء إلا أن يندهش بالانتقال التدريجي للديانات، و لا سيما المسيحية و الإسلام، من جزء من العالم إلى أجزاء أخرى . و ثمة ظاهرة أخرى تنمو باضطراد ، و هي الطوائف و المذاهب التوفيقية نوعاً ما . و من المناسب في هذا الصدد ، دراسة النزاعات المحتملة أو الدور المحفز الذي يمكن أن تؤديه المعتقدات في تسريع أو كبح أوجه التضامن الاجتماعي و التعليم و التحولات الاقتصادية و الاجتماعية .

إن الثقافة الاجتماعية أو القومية تتشكل بطبيعة التراث و بالمورثات الخاصة بنا و التي تنتقل إلينا مع تعاقب الأجيال ، يضاف إليها العوامل المكتسبة للبيئة و يتفاعل الاثنان ليشكلا في النهاية النسيج الثقافي للإنسان ، و هناك حقيقة تقول إن التعليم هو جزء من الثقافة. و هناك أيضا ثقافة بلا تعليم و هي ما نطلق عليها ثقافة الفطرة . فقد يكون الإنسان بسيطا، أميا ، و لكنه مثقف بالفطرة و بالخبرة و بالتراث الذي ورثه عن أجداده. (٢)

و الجدير بالذكر أن كلمة ثقافة لم ترد إطلاقا في القرآن الكريم و لا في السنة النبوية المطهرة، كما لم ترد في نصوص العرب، و أشعارهم لا في الجاهلية و لا في إسلام. و قد وصفها المعجم الوسيط بأنها كلمة محدثة في اللغة العربية، مما يدل دلالة قاطعة على

١- مجموعة من المؤلفين: البعد الثقافي للتنمية.. نحو مقاربة عملية منشورات اليونسكو- الاسكوا ١٩٩٥ ترجمة يوسف سماحة ص٣١ دون تحديد مكان الصدور

٢- صحيفة الأهرام- القاهرة ١٩٩٨/١٢/١٨ من حوارات دلال العطوي.

أنه لم يكن لها عند العرب و المسلمين ذلك الوزن الذي يعطي لها اليوم ، و من هنا فإن العرب و المسلمين حتى ما قبل قرن من الزمان لم يكونوا يولونها أي حظ من الاهتمام ، بينما هي اليوم كل شيء في حياة البشرية بل هي مرآتها. (١)

مدخل لدراسة الثقافة السورية المسيحية

لسنا نحاول في هذا الفصل أن نتناول الثقافة السورية المسيحية كموضوع لدراسة تجريدية بحتة تسلخ الإنسان السوري عن مجتمعه، و تسلخ المجتمع السوري عن تاريخه و واقعه ، و تسلخه عن المجتمع العربي كذلك. إن الإنسان السوري موضوع البحث يشمل كل سوريا الطبيعية التي قسمت ثلاث مرات في القرن العشرين و أصبحت أربع دول و هي : سوريا و لبنان و فلسطين و الأردن، و إن جرى التقسيم سياسياً فإن الشعب في هذه الدول الأربع لا زال هو نفسه الشعب السوري . كما أن الشعب السوري لا ينظر إليه كبطل رواية خيالية بقدر ما هو كائن مادي تشكل ثقافته و نفسيته و تحكم تجاوبه مع العوامل الحياتية ، مؤثرات تاريخية مادية بكل ما يترتب عليها و يرافقها و يتولد عنها بالمفهوم الجدلي من أفكار و ثقافات و قيم.

و الحديث عن الثقافة السورية المسيحية لا يعني الشطط في الخيال ، بل إن البعض اعتبر الحديث في ذلك ضرورياً لتكوين الهوية فردية كانت أم جمعية في تقوية النسيج الاجتماعي و دعم صناعة الثقافة ، و زيادة القدرة على إقامة حوار ثقافي مع الغير. و قد فند أحد الباحثين الحديث عن أن التنوع يخدش الوحدة الوطنية و العربية. (٢)

إن الثقافة السورية المسيحية هي الرديف للثقافة العربية في هذه المنطقة و مستودع قيمها و وعاء حكمتها، و حقيقة هويتها الحضارية (حيث لكل شخصية ثقافية إنسانية أصيلة شاملة لمظاهر المادة و الروح، ذات عراقة تاريخية، تتميز بقيم فكرية عالية و قيم الحق و العدل و المساواة و احترام المعرفة) . (٣)

١- مجلة البصائر- بيروت العدد ٢٤ شتاء ١٤٢١ هـ ص ٥٣

٢- عصام الخفاجي: ملاحظات حول العولمة و القومية في (العولمة) مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت ١٩٩٩ ص ٣٧٧ - ٣٨٠

٣- عبد السلام المسدي: العولمة و العولمة المضادة كتاب سطور القاهرة ١٩٩٨ ص ٨٠

و الخصائص الثقافية لبيئة معينة لا ينظر إليها بصفتها عقبات إلا من منظور اقتصادي بحيث يمكن لهذه الخصائص على العكس ، أن تشكل العنصر الأكثر دينامية في بعض المشاريع التي يتماهى معها السكان المحليون.

فالثقافة منتج اجتماعي لتكييف فرص و مناخ الفعل و التفاعل الاجتماعيين، فتكون الثقافة إطارهما و ليست علتهما. و من ثم فإن دراسة ثقافة مجتمع ما باعتبارها نتاجاً تاريخياً، تعني بالضرورة دراسة الفعل الاجتماعي و علاقات التفاعل داخل المجتمع ، و مع مجتمعات خارجية ، سواء في صورة تبادلية حرة أو في صورة ما نسميه غزوات أو فتوحات أو غير ذلك من أسماء ، و تعني أيضاً استبيان الآثار المتولدة و العلاقات التبادلية الجديدة الناجمة و تحوراتها، و ما أفضت إليه الظروف و الملابسات الجديدة من ابتكارات الفعل و الفكر الاجتماعيين. فالثقافة نهج تعامل تبادلي مشترك ، و لا نفهمها إلا في إطار العلاقات المتبادلة عملياً و تطبيقياً ، أي في إطار الاستخدام ، أو من حيث ثقافة معيشة اجتماعياً يجسدها سلوك.. (١)

هذه الثقافة المسيحية لها بعدها الشامل و الأبعاد الرمزية لتلك الخصائص و المزايا. و لسنا وحدنا الذين نزعم تفرد ثقافتنا ، فمعظم شعوب العالم شديدة الاعتزاز بثقافتها ، تسمو بها فوق كل ثقافة أخرى .

والثقافة السورية المسيحية قوامها القيم و المعتقدات و المعارف و الفنون و العادات و الممارسات الاجتماعية و الأنماط المعيشية ، و من خلال هذا المنظار يرى الفرد ذاته و مجتمعه و معيار الحكم على الأمور أيضا. و هي تعبر عن التراث و الهوية و الحمية القومية و طابع الحياة اليومية من خلال نقل أنماط العلاقات و المعاني و الخبرات بين الأجيال . و هذه الثقافة تدافع عن الابتكار و الإبداع و النضال ضد القهر و التصدي لصنوف الظلم التي مرت بهذه المنطقة .

كما أن الثقافة السورية المسيحية تتقارب مع أحد المفاهيم .. هي ذلك الشائع الغامض ، الواقع خارج حدود الوعي الفردي و الجمعي، الغائر في العادات و أنماط السلوك التي تؤخذ عادة – كقضايا مسلم بها. (٢)

١- مايكل كارينرس: لماذا ينفرد الانسان بالثقافة ترجمة شوقي جلال سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ٢٢٩ ص ١٠

٢- د. نبيل علي: الثقافة العربية و عصر المعلومات سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ٢٦٥ ص ١٢٧

و منذ ولادة سوريا لم يتغير فيها الدين على طول أحقابها إلا مرتين، و لم تتغير اللغة أيضا إلا مرة . في حين أن بريطانيا التي لا يعود تاريخها لأكثر من ألفي سنة، تغير الدين خلالها مرتين . و تغيرت اللغة أربع مرات على الأقل . و أسبانيا يرجع تاريخها إلى ألفين و خمسمائة سنة تغير الدين خلالها ثماني مرات ، اللغة ست مرات. أما جنسنا فلم يتغير خلال سبعة آلاف سنة إلا تغيرات طفيفة ، في حين أن بلدا كإيطاليا تعاقبت عليه أجناس كثيرة ، غيرت عنصر السكان تغييرا تاما أكثر من مرة.

ثقافة تتسع للكل

كانت سوريا لها رسالتها الحضارية لم تختلف على طول الزمان، و إن تعاقبت العصور و تغيرت الدهور. و يتشابه وضع سوريا مع ما كتبه د. حسين مؤنس في كتابه (مصر و رسالتها). (١) حيث كان لهذين البلدين دورهما في بناء حضارات الشرق الأوسط.

كما كانت سوريا في كل زمان مركزا من مراكز الحضارة و حصونها و مهادها ، و أهلها في كل عصر حراس على تراث الإنسانية، و أمناء على جانب كبير مما أبدع البشر في ميادين العمران. و لعل بلدا من بلاد الأرض لا تصدق على حضارته صفة الاستمرار، كما تصدق على سوريا. ففي هذه البلاد ولدت المسيحية و استقبلت الإسلام.

و هنا في البلاد السورية سادت ثقافة يمكن أن نطلق عليها (الثقافة المسيحية) التي أخذ الإسلام منها الكثير من خلال العصرين الأموي و العباسي، و من خلال انصهار المسيحيين في بوتقة الإسلام على مدى السنين. هذه الثقافة هي التي تأخذ بأيدينا بخصائص العقلانية،و تتفتح على المعرفة العلمية بحيث تستقبلها و توظفها و تنقلها و تساهم في تطويرها بالسياجات الدوغماطقية المغلقة، ثقافة تتجاوز دائرة الاجترار الذاتي، ثقافة تواكب عصر المعلومات الإلكترونية، ثقافة تتجاوز المجتمع القبلي و الطائفي و ترسخ أساسيات المجتمع المدني، ثقافة تفهم المسيحية كدين حضاري مدني يدعو إلى حرية الفكر و العقيدة و الانفتاح الثقافي و الأخذ بأسباب التقدم و التفكير المنطقي السببي، ثقافة تفهم المسيحية

١- صحيفة الأهرام- القاهرة ٢٠٠٠/٤/٢ ص ٣٤

بوصفها دينا يدعو إلى الانفتاح على الكون و الحياة، و لا يتعارض مع الحداثة و التجديد و الاستفادة من التجارب الحضارية الأخرى. فالثقافة المسيحية المشرقية معناها الثقافي لا الديني فحسب، ينبغي أن تواكب التطور بالانفتاح و الحوار الحضاريين، و بمزيد من الانسياق إلى الوضوح و اللين و الثقة و الفطنة، في كل ما، في كل ما يمكن قوله و فعله معا، و يعرف ، في الوقت عينه، أنها مدعوة بذلك إلى (توسيع رقعة خبائها) لتستقبل فيه (أمانة) الآخرين.

أما بمعناها الديني فهي تدعوه إلى الانسجام مع إيمانه الخاص، و التضامن مع الجماعة الدينية التي تنقل إليه هذا الإيمان الذي تغذيه بكل تراث صلاحها و قداستها، و تعترف بسلامته في تطبيقه الشخصي، و أن الإيمان بدون أعمال لا يكون صادقا و لا مقبولا لدى الله.

و لم يكن لهذا الأمر أن يتم دون أن يدرك المسيحي و يعرف كيف ينفتح على حقيقة الآخر، دون أن ينحل إليها عبر إخصاب متبادل بين حكمة الأنا و حكم الآخرين.

إن مجموعة التصورات الإنسانية في بعدها التاريخي تشكل ما يمكن أن نسميه بالوعي الاجتماعي. و بما أن مرتكزات و مصادر التصورات الإنسانية هي علاقات مختلفة، فمن المنطقي أن نتوقع أن يتأثر البناء الداخلي للتصورات و يتشكل تبعا لقوة أجزاء العلاقات و التفاعلات المكونة له. و لتوضيح ذلك نضرب مثلا بالمجتمع الرأسمالي. ففي ذلك المجتمع تدور العلاقات الاجتماعية في مجملها حول الجوانب الاقتصادية ، و عليه يصبح الوعي متأثرا بالبعد الاقتصادي أكثر من البعد الديني أو السياسي مثلا (بمعنى أن العلاقات الاجتماعية جميعها تبدو كما كانت علاقات بين أشياء : سلع اقتصادية). (١) و الأمر ليس كذلك في سائر المجتمعات الأخرى التي قد يكون الوعي الديني هو السائد في أحدها، أو يكون السياسي ، أو أي مكون اجتماعي آخر هو السائد. و تتوقف سيادة وعي معين دون غيره على الموقف التاريخي الحضاري، و نتيجة التفاعلات الاجتماعية بين الأفراد ، و الجماعات ، و النظم المختلفة مع بعضها البعض.

١- مجلة المستقبل العربي- بيروت العدد ٩٠ ١٩٨٦/٨ د. ادريس سالم الحسن : محاولة في التنظير.. التعبير الديني عند البدو

الإنسان ليس حيوان مختبر، و تصرفه السلوكي لا يفهم إلا بربطه بشروطه الوجودية و الثقافية، و هو تصرف ثقافي و حضاري و اجتماعي هادف و عاقل. و الكائن الإنساني هو كائن كلي بالمعنى الانتروبولوجي للكلمة، يدرك الأشياء بكلياتها، و ليس بجزئياتها ، و هو يتميز بذهنية كيفية، تقوم على آلية التجريد و التركيب و العقل، أي الربط. من هنا أهمية النظرة النفسانية الكلية الظواهرية التي تقوم على الشكل و البنية الظواهرية الكلية في فهم الثقافة السورية المسيحية.

و هذه النظرة ترفض الطريقة التحليلية للخبرة و السلوك و تؤكد أهمية الكليات التي تعتبرها أكثر من مجموع الأجزاء المكونة لها (الجملة) ، و بهذا يكون العامل هو (الشخص) جميعة العقل و الروح و الجسد ، بالعلاقة مع تاريخه و وسطه ، و علاقاته مع محيطه. (١)

و ليست المسيحية شيئا بيولوجيا مثل الأجناس ، بل إنها شيء اجتماعي أخلاقي : أي إنها مجتمع بشري محلي يقوم حقا على الولادة و النسب بكل ما في هذين المصطلحين من مدلولات معنوية: ما تلده الحياة الثقافية و النشاط الحضاري و النسب في تقاليد الأسرة و التكوين الاجتماعي و القضائي و التراث الثقافي و المفاهيم و المعتقدات و العادات المشتركة و الذكريات التاريخية و الآلام و المطالب و الآمال و الميول و المضايقات ، مدركة لحقيقة كونها تكون مجتمعا محليا له أنماط من المشاعر، و أنها تحتفظ بوحدتها و فرديتها و بإرادتها في الكينونة و البقاء.

و تشكلت الثقافة السورية المسيحية من أناس يعون أنفسهم كما كونهم التاريخ ، و هم القيمون على ماضيهم ، يحبون أنفسهم كما يعرفونها، يتصورونها مع قدر من الاستبطان لا بد منه.

و هؤلاء المسيحيون لهم تربة أو بقعة من الأرض، و لا يعني ذلك، كما هو الحال في الدولة، أن لهم رقعة يمارسون فيها السلطة و تصريف الأمور، بل لهم مهد للحياة و العمل و الألم و الأماني . و لهم حقوق في الحقيقة حقوق الأفراد في الإسهام في القيم الإنسانية الخاصة بالتراث القومي و لهم مهمة تاريخية هي توسيع تاريخي عارض لمهمة الإنسان في الكشف عن إمكاناته المتعددة المتنوعة و معرفتها.

١- صحيفة السفير- بيروت ٢٠٠١/٣/٢ ص٩ مقابلة مع د. مصطفى صفوان أجرها عباس بيضون

كان عصر المسيحية الأول عصر الضمير لا عصر العقل، و هذا كان كافيا في حينه و هو ما جعل منها ليس ديانة فحسب و إنما ثقافة إنسانية دفعت شعبها خطوات واسعة إلى الأمام.

و على عكس ما رآه تولستوي من أن حياة الفلاح الجاهل خير حياة و أبعدها عن الشرور، و أن الشر في حياتنا الاجتماعية إنما هو ناشئ عن ذلك الشك الملازم للمعرفة و البحث مما تعارف الناس على تسميته بالثقافة ، فإن المسيحيين في سوريا لم يحولوا وصولهم إلى ثقافتهم إلى سد و قفوا عنده بل اجتازوه بكل صعوباته.

و في ظل العقيدة المسيحية تطورت الفنون و تأصلت قوانين. و من خلال المعارف المسيحية، اكتسبت الأفكار معانيها. و ما يقوله الفرد المسيحي ينبع كله من تراث الثقافة الدينية و يعتمد على معنى هذه الثقافة .

إن الفرد السوري المسيحي مدين بأشياء كثيرة لتراثه الديني، بالإضافة إلى الإيمان بالله، فعن طريقه حصل على مفهومه عن قانون التطور الذي فعل الشيء الكثير في مجال تشكيل نظرته إلى الحياة، و عن طريقه حصل على أفكار عن الأخلاق الخاصة و العامة، و عن طريقه حصل على أفكاره عن مقاييسه العامة في بناء وطنه.

الثقافة رموز

و لأن الثقافة عامة هي اصطناع الرموز و استخدامها، و لأن الثقافة ملة من الملل تفترق عن غيرها بالرموز الخاصة بتلك الثقافة، فقد أصبحت هذه القدرة الخاصة عاملا ملازما لمفهوم الثقافة و معناها. فإذا كان كل ما يشكل جزءا من الثقافة يدخل في عداد الرموز، يستوي في ذلك الكلمات و العبارات و العلاقات و غيرها، فإنه من الطبيعي أن يحتل الترميز، بمعنى اصطناع الرموز ، دورا أساسيا في فهم ماهية الثقافة و تحديدها. (١)

و الرموز، سواء أكانت حركية أم لفظية أم غير ذلك، تحمل معاني لا تدركها الحواس وحدها، و كلما تطورت هذه الرموز، و كلما ابتعدت عن الدائرة المباشرة للاحساسات أصبحت عناصر سلوكية ثقافية، الصلاة و الصوم، و الرابطة الزوجية ،

١ـ د. معن زيادة: معالم على طريق تحديث الفكر العربي سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ١١٥ ص ٣٤

وصلات القربى و الروابط الوطنية و القومية و غيرها و غيرها، كلها رموز تحمل من المعاني بقدر ما تضعه فيها ثقافة ما. في بعض الحالات تكفي إشارة صغيرة من المرجع الديني، أو صاحب السلطة لتثير الجماهير المحتشدة و تحرك فيها من المشاعر و الأحاسيس و المعاني ما ليس في تلك الحركة أو الإشارة عادة، و هذا كله و غيره كثير هو من قبيل الرموز التي يختص بها الإنسان و تتكون منها ثقافته.

و يجمع بين المسيحيين و المسلمين ثقافة واحدة تعتبر (الدين الشعبي)، و هي المعتقدات و الممارسات الدينية باستقلال نسبي عن المؤسسة الرسمية، و هو شديد التنوع بحسب البيئات و النظم الاجتماعية و الأحوال الاقتصادية و أنماط المعيشة ، و يتمركز حول المزارات أو أضرحة الأولياء و القديسين الصالحين ممن لهم أصول في التاريخ و حول شخصيات أسطورية، و من عناصره تدرجات القداسة، و التفسيرات الرمزية، و ضعف العلاقة مع علماء الدين (خاصة حين يمثلون السلطة الرسمية) ، و التمسك بتقاليد مشتركة بين مختلف الطوائف مستمدة من عهود قديمة قد تعود في بعضها إلى ما قبل نشوء الديانات التوحيدية. و من عناصره الأخرى التشديد على شخصية القوى المقدسة و الوسطاء بين المؤمن و الله، و على أهمية التجربة الروحية الذاتية و الورع الداخلي ، و الإيمان بالعجائب الخارقة و بالبركة، و التأويل . و يتمركز التعبد حول شخص الولي و القديس أكثر منه على النصوص و التعاليم المجردة.

و الدين الشعبي عملية تتأثر بالقيم و الثقافة و التصورات الاجتماعية، و أكثر من هذا أهمية دور كل من عضوية الفئة الاجتماعية، و المقارنة الاجتماعية التي تتم بين الفئات في استمرار الهوية الاجتماعية الإيجابية للشخص. و هو الدور الذي يقوم به الأفراد للبحث عن اوجه التمييز بين جماعتهم التي ينتمون إليها و الجماعات الأخرى، و خصوصا على أساس الأبعاد ذات القيمة الإيجابية.

المسيحية و هوية الأفراد الاجتماعية

إن المسيحيين السوريين بعضويتهم في ملتهم يكونون مدفوعين لتكوين صورة ذاتية إيجابية، و هم الأقلية بين السكان، و يتم تعزيز هذه الصورة الإيجابية من خلال

التقويمات الإيجابية للجماعة التي ينتمي إليها الشخص . لذلك يفترض أن تقويمات المسيحيين السوريين الداخلية تتم بصورة أساسية من خلال المقارنة بالجماعات الأخرى. و يتبع ذلك وجود ميل عام لدى الأشخاص للبحث عن الفروق الإيجابية بين جماعتهم الخارجية الأخرى على أساس مختلف الأبعاد. (و هذا التمييز الإيجابي الذي تفترضه نظرية الهوية الاجتماعية يقف خلف العديد من أشكال التحيزات السلوكية و التقويمية و الإدراكية التي تكتشف في سياق الجماعات الداخلية) . (١)

و تفترض نظرية الهوية الاجتماعية وجود رجعة استجابة مستمرة في عملية التصنيف إلى فئات اجتماعية، حيث إن وجود الآخرين ساند للتصنيف إلى فئات داخل محيط اجتماعي يغري الأفراد بان يجعلوا عضويتهم في الفئة التي ينتمون إليها جزءا من هويتهم الاجتماعية. (٢)

إن الهوية الاجتماعية للمسيحيين السوريين تستمد من عضويتهم في مختلف الفعاليات ، و تضع في حسابها كلا من العمليات المعرفية و الدافعية عند تفسير إدراكات الجماعة الداخلية و أشكال سلوكها نحو أعضاء الجماعات الأخرى . فإذا وحد بين العضوية و الهوية يؤدي بهم ، بدوره، إلى أن يتبنوا استراتيجيات خاصة في تعاملهم مع الأشخاص الآخرين . و هو ما يزيد من احتمالية التمييز بين الفئات الاجتماعية بطرائق تؤيد جماعتهم الخاصة و تدعم سيادتهم أثناء عملية التنافس بين الجماعات .

و يعني ذلك أن هناك عاملين مرتبطين بصورة وثيقة بتمثل الأفكار الخاصة بالجماعة التي ينتمي إليها الشخص و الجماعات الأخرى. الأول يهتم بعملية التقويمات – التفضيلات- و الثاني يهتم بالتفاعل الدقيق الذي يحدث مبكرا في الحياة بين توحد الطفل مع الجماعة التي ينتمي إليها و تأثير أفكاره في مختلف الجماعات ، بما فيها جماعته و الجماعات الأخرى، التي تعد مقبولة بوجه عام من الجميع.

1- Brewer،m & Kramer، R: The Psychology of Intergroup Attitudes and Behavior، Ann. Rev. Psychol. 1980، 36، 219-243

2- Turner، J: Social identification and psychological group formation، in : H. Tajfel (ED). The Social Dimension، London: Cambridg University Press 1984 Vol 2 P. 518 - 538

www.al-maktabeh.com
مكتبة
المهتدين

الفكر المسيحي في الثقافة العربية

التراث المسيحي غني في هذه المنطقة، و هو الذي كتب على يد مسيحي، سواء كان ذلك من التراث الديني، أو التراث الفلسفي، أو الأدبي أو العلمي، أي أن الموضوع لا ينحصر في اللاهوت أو الديانات ، و إنما يشمل جميع ألوان الإنتاج الفكري. و يعني التراث العربي كل ما كتب باللغة العربية، سواء كان ذلك موضوعا أصلا باللغة العربية، أو مترجما إليها من لغات أخرى. و ذلك بصرف النظر عن أصل المؤلف أو المترجم، فإن جزءا لا يستهان به من التراث العربي المسيحي القديم قد ترجم في المرحلة الأولى من اليونانية أو السريانية إلى العربية.

و قد حفظت لنا المكتبة العربية خلال القرن العاشر ما عرف بـ(الطبقات) و هو باب يصنف فيه الأدباء و العلماء و النابهون بحسب مشابههم مع تعداد مؤلفاتهم . و الكتب الثلاثة الأولى التي سنذكرها أتت على ذكر أطباء و فلاسفة و علماء، و أهملت إهمالا فادحا الكتاب المسيحيين في ذلك و الكتب هي:

كتاب الفهرست لابن النديم (ت ٨/ ٩٨٧) و تاريخ الحكماء لابن القفطي (ت ١٢٤٨) و عيون الأنبياء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (ت ١٢٩٧) و وفيات الأعيان لابن خلكان (ت ١٢٨٢) و ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب لياقوت الحموي (ت ١٢٢٩) . و إلى هؤلاء يضاف كتاب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع عشر للسخاوي (ت ١٤٩٧ ، ١٢ جزء، القاهرة ١٣١٣ ـ ١٣٥٥/ ١٩٣٤-١٩٣٦)، الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة لنجم الدين الغزي (طبعة جبرائيل جبور، منشورات الجامعة الأمريكية في بيروت ج١، ١٩٤٥، ج٢، ١٩٤٩) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر لمحمد المحبي (ت ١٦٩٩، القاهرة ١٢٨٩ هـ) ملك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر لمحمد المرادي (٤ ج ، القاهرة ١٣٠١ /١٨٨٣) و غيرها من المؤلفات التي شكلت عمادا للمؤرخين في تناول سير العلماء و الكتاب العرب.

و لم يثر الاهتمام بدراسة التراث الفكري المسيحي العربي إلا في أواخر القرن التاسع عشر ، و إلى مجلة المشرق سنة ١٨٩٨ تحديدا التي لا زالت تصدر من بيروت ،

و هي كنز من المعرفة في تناول هذا التراث و عن طريقها كتب الثقاة من العرب و المستشرقين المقالات و الأبحاث الطوال و المعمقة في هذا الشأن، و على رأس هؤلاء الأب لويس شيخو و هو صاحب المؤلفات التالية (الآداب العربية في القرن التاسع عشر) ١٩٢٤، (المخطوطات العربية لكتبة النصرانية) ١٩٢٤، (النصرانية و آدابها بين عرب الجاهلية) ، (شعراء النصرانية)، (تاريخ الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين) ١٩٢٦. و لا يسعني هنا سوى ذكر كوكبة من الكتاب الذين ساهموا في هذا الباب منهم الأب قسطنطين باشا و الأب بولس سباط، و الأب يوسف حداد ، و الاكسرخوس يوسف نصرالله ، و الأب هنري متري اثناسيو ، و حبيب زيات و غيرهم ممن استعنت في الكثير من مؤلفاتهم أو مقالاتهم لدى تناولي للمواضيع المتصلة بمسيحي سوريا.

كما أن هناك صاحب فضل أكبر في التعريف بالأدب العربي المسيحي هو الدكتور ج . غراف . . فقد نشر منذ سنة ١٩٠٥ خلاصة باسم (الأدب المسيحي العربي) ، ثم عكف على إعداد العدة لمؤلف مستفيض جامع يدور حول هذا الأد ب الذي وقف حياته على التنقيب عنه و التعريف به، فأسفر جهده الدائب عن كتاب ضخم يقع في أربعة أجزاء كبيرة هو (تاريخ الأدب المسيحي العربي) ، و قد نشر في مجموعة مكتبة الفاتيكان المعروفة باسم : دروس و شهود . فالجزء الأول يضم التراجم (١٩٤٤، ٦٢٢ ص)، و الثاني الكتاب حتى منتصف القرن الخامس عشر(١٩٤٧، ٥١٢ ص) ، و الثالث الكتاب الملكين و الموارنة من منتصف القرن الخامس عشر حتى نهاية التاسع عشر (١٩٤٩، ٥٢٥ ص) ، و الرابع الكتاب السريان و الأرمن و الأقباط، و أدب الرسالة، من منتصف القرن الخامس عشر حتى نهاية التاسع عشر (١٩٥١، ٣٤٢ ص) . ثم أضيف جزء خامس يحوي فهارس جامعة مفيدة (١٩٥٣، ١٩٦ ص) . (١)

رياح المنطقة

تأثرت سوريا بالثقافة اليونانية في إثر احتلال الأسكندر الأكبر لها و قيام المملكة اليونانية السلوقية التي ما عتمت أن أصبحت عاصمتها أنطاكية . و هذه المدينة بناها

١ـ مجلة المسرة ـ حريصا عدد تموز ـ كانون الأول ١٩٧٦ السنة ٦٢ ص ٣١٩ الأكسرخوس يوسف نصرالله

أنطيوخوس أحد ملوك السلوقيين الذين بنوا مدنا كثيرة في سوريا و أسكنوا فيها جاليات يونانية لتقوية نفوذهم و نشر الثقافة اليونانية تجاوبا مع فكرة أسكندر الأكبر و هي توحيد شعوب الأرض حول هذه الثقافة . ثم تابع الرومان تحقيق هذه الفكرة. و استفادة المسيحية في أول انتشارها من النظام الروماني و على الأخص من سيطرة اللغة و الثقافة اليونانيين في الإمبراطورية الرومانية. كما استفادت هذه الإمبراطورية نفسها لأنها قوت و عمقت الولاء للنظام الروماني إلى حد أن بعض آباء الكنيسة اعتبروا الإمبراطورية الرومانية الإطار الأصلح لنشر الإيمان المسيحي و حماية وحدة الكنيسة و جامعيها.

و لم يكن التأثر بالثقافة اليونانية عاما في البلاد السورية. فقد سبق لهذه البلاد أن كانت لها حضارة أو حضارات من جراء احتلال الإمبراطوريات القديمة لها. و لكن ما عتمت أن سادت اللغة السريانية التي أصبحت في عهد الحكم الفارسي أشبه باللغة الدارجة بين شعوب الشرق الأوسط. فلا عجب إذا أن يكون ولاء الناطقين بالسريانية للإمبراطورية الرومانية أخف و أضعف على المستوى الشعبي.

و أصبحت سوريا جزءا ثابتا من العالم الهلنستي حيث التقى الشرق مع الغرب و اشتبكا حضاريا بصورة لم يسبق لها مثيل في التاريخ، إذ هيمن الطابع اليوناني على المدن السورية الكبرى وخصوصا الأحياء الجديدة التي أسسها السلوقيون إلى جانب المدن الأصلية . لكن الشرق القديم ظل محتفظا بنفسه في الأرياف و لم تنطفئ فيه روح الحياة، و ما أن تهاوى ذلك السقف الهلنستي الرقيق حتى استعاد العنصر الشرقي حياته في كل مكان. (١)

كانت اللغة السريانية لغة الريف في القرن الثالث،و كان الرهبان على العموم شبه أميين خصوصا حتى مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ يتكلمون السريانية و يجهلون اليونانية . و عندما اجتمع في القرن السادس في سوريا ١٣٧ ممثلا عن أديرة أبرشية العربية (جنوبي دمشق) ١٨ منهم فقط وقعوا شهادة الإيمان باليونانية. أما الآخرون فبالسريانية . و في بعض الأديرة كانت أبنية منفصلة تستقبل الرهبان ذوي الثقافة اليونانية و أخرى ذوي السريانية. (٢)

١- هورست كلينكل: آثار سورية القديمة ترجمة قاسم طوير دمشق ١٩٨٥ ص ١٨

٢- الأب متري هاجي أثناسيو: سورية المسيحية في الألف الأول الميلادي الجزء الأول ص ٤٨ مكتبة نوبل- دمشق ١٩٩٧

و استطاع السوريون المسيحيون، سكان الجبال الجرداء، أن يرفعوا في العهد البيزنطي (أوائل ق٤ - أوائل ق٧) حضارة وطنية مسيحية ظلت بصماتها مواكبة مآثرها بالآثار الجميلة الغنية الرائعة – هي معجزة من معجزات التاريخ ، و ذلك بفضل ذكائهم و دأبهم و نشاطهم و إيمانهم.و قد استرعت هذه الحضارة السورية المسيحية القديمة اهتمام الأجانب، فجاء الكثيرون و أخذوا يعتمدون المخططات الهندسية للأبنية الدينية المسيحية، و ينسخون الرسوم الجميلة التي تزين أبواب الكنائس و القصور.

الثقافة المسيحية قبل الإسلام

إن ما يطلق عليه الأدب الجاهلي هو مزيج من أدب المسيحية و غيرها من الملل، حيث إن الكتابات العربية الشمالية كتبت في بيئة مسيحية و تنحدر من الخط النبطي، كما يفترض، أو السرياني ، و لا يشك باحث في الأصل المسيحي للخط العربي كما يفترض.(١) و يرجع بعض العلماء أن معظم سكان النبط كانوا يتكلمون لهجة من اللهجات العربية، و خرجت الأبجدية العربية المعروفة بخطها المعروف، و في الهلال الخصيب قبل الميلاد بقرون في مملكة الزباء أو زنوبيا.. من يتكلمون الآرامية أو من يتكلمون العربية. (٢)

و يلاحظ أن الذين كتبوا بالقلم العربي الشمالي، الذي أخذ منه قلم مكة، هم من العرب النصارى في الغالب. فأهل الأنبار و الحيرة، و عين الشمس،و دومة الجند ل، و بلاد الشام، كانوا من النصارى . فلا أستبعد احتمال استعمال رجال الدين للقلم السرياني المتأخر، الذي كوّن القلم النبطي في كتابة العربية ، لحاجتهم إلى الكتابة في تعليم أولاد النصارى الكتابة ، و تثقيفهم ثقافة دينية. فكانوا يعلمونها في المدارس الملحقة بالكنائس، و ربما نشروها في البحرين، أي في سواحل الخليج، حيث كانت هنالك جاليات نصرانية، و في الأماكن الأخرى

1- C. Rabin Arabiyya, in Encyclopedie de L' Islame), 2, ed, 1, Leyde et Paris 1960 P.P 579 a- 622 b

٢- لويس عوض: مقدمة في فقه اللغة العربية الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٩٨٠ ص ٨

من جزيرة العرب التي كانت النصرانية قد وجدت سبيلا لها بينها. و لا استبعد احتمال عثور المنقبين في المستقبل على كتابات مطمورة كتبت بهذا القلم، كما يقول جواد علي. (١)

و كان للنصرانية أثر مُهمّ في نشر الكتابة العربية، المأخوذة عن السريانية، بين الجاهلين ، الكتابة التي تولد منها قلمنا الذي نكتب به في الوقت الحاضر. و قد وجد المسلمون، في فتحهم العراق، مدارس عديدة لتعليم الأطفال القراءة و الكتابة . كما أن تجار مكة و يثرب، الذين كانوا يقصدون الشام و العراق، و جدوا الضرورة تحتم عليهم تعلم هذا الخط، فتعلموه. و لما نزل الوحي، كتب كتابه به، فصار قلم المسلمين. (٢)

و من أشهر شعراء النصرانية عدي بن زيد (٣) المتوفي سنة ٥٨٧م، وأشهر خطيب جاهلي قس بن ساعدة المتوفي نحو سنة ٦٠٠، واعظ القوم في سوق عكاظ. (٤)

و يعد كتاب الأب لويس شيخو (شعراء النصرانية قبل الإسلام) من أهم المراجع التي جمعت دواوين الشعراء المسيحيين، و هناك كتابه (النصرانية و آدابها بين عرب الجاهلية)(٥) ، كما كتب عن ذلك الأب انستاس ماري الكرملي أكثر من موضوع عن ذلك.(٦) و لم يخلو هذا الموضوع من أخذ و رد، فقد قيل إن الأب شيخو كان ينسب الكثير من الأشعار الجاهلية إلى شعراء النصرانية، دون أن يتأكد تماماً من نصرانيتهم. (٧)

و تراوح ما كتبه ورقة بن نوفل بين ما كتبه بالعبراني أو السرياني. (كان امرؤ تنصر في الجاهلية و كان يكتب الكتاب العربي . و يكتب من الانجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب). (٨)

١- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام عشرة أجزاء دار العلم للملايين- بيروت ط ٢ ١٩٧٨ الجزء السادس ص ١٧٨-١٧٩

٢- جواد علي: المرجع السالف ص ٦٨٩

٣- نذير العظمة: عدي بن زيد .. شخصيته و شعره بيروت ١٩٦٠

٤- مجلة المشرق- بيروت عدد ١٨ عام ١٩٠٢ ص ٣٧٩ – ٣٨٠ الأب لويس شيخو

٥- الأب لويس شيخو النصرانية و آدابها بين عرب الجاهلية بيروت ١٩٢٣ ص ٢١١-٢١٨

٦- مجلة المقتبس- دمشق ١٩٠٧ ص ٦١- ٦٩ و ١٣٢-١٤٣ الأب انستاس ماري الكرملي

٧- راجع مثلا مجلة الضياء – القاهرة العدد٢ (١٨٩٩- ١٩٠٠) ص ٢١٣ –٢١٤ و غيرها من الصفحات بقلم ابراهيم اليازجي

٨- جواد علي : المرجع السالف الجزء السادس ص ٦٨٠

الثقافة المسيحية في العصر الإسلامي

إن الحضارة العربية الإسلامية الرائعة التي ازدهرت في العصر الإسلامي و أنارت طوال العصور المتتالية و كانت نقطة انطلاق للحضارة المعاصرة. . هذه الحضارة العربية الإسلامية بناها المسلمون و المسيحيون معا: لم يتخلف أجدادنا عن أن يكونوا عونا و سندا في المجتمع العربي, لم يتخلف تراثنا عن أن يكون بعضا من التراث العربي و الحضارة العربية, لم يشعر أجدادنا في أي عصر أنهم غرباء, أو أنهم مهاجرون , بل إن الحضارة العربية صهرت المسلمين و المسيحيين معا لبناء الحياة على أرض الوطن. و من نعم الله على سوريا أن هذا الامتزاج الإنساني الرائع, و هذه الوحدة الحضارية النادرة, ثمرة لطبيعة سوريا الواحدة المترابطة القوية منذ آلاف السنين.

و قد كتب الكثير عن التأثير المسيحي الديني و الحضاري في عرب الجاهلية و في الإسلام الناشئ, تلك الألفاظ التي اعتبرها اللغويون دخيلة. ومن الدراسات الجادة بهذا الخصوص ما كتبه آرثر جفري (١) , و ما يخصنا هنا الألفاظ التي اعتبرها من أصل مسيحي مؤكد, و إن كان أصلها أحيانا عبريا.

و الألفاظ الدينية التي وردت في القرآن الكريم و هي من أصل مسيحي تشمل عدة كلمات مثل:

إبليس (ص ٤٧-٤٨) و إنجيل (٧١-٧٢) و بيعة (٨٦-٨٧) و جَهنَّم (١٠٥-١٠٦) و حَوَاريّون (١١٥-١١٦) و رُجز(١٣٩) و زبور(١٤٨-١٤٩) و سلطان (١٧٦-١٧٧) و شيطان (١٨٧ - ١٩٠) و صِبغة (١٩٢) و صَلوات (١٩٧-١٩٨) و صوامع(٢٠٠-٢٠١) و صوم (٢٠١-٢٠٢) و طُوبَى (٢٠٦) و طُور(٢٠٦-٢٠٧) و فردَوس (٢٢٣-٢٢٤) و فُرقان (٢٢٥- ٢٢٩) و قُدُس (٢٣٢) و قسيّسون (٢٣٩-٢٤٠) و قِسط (٢٣٧-٢٣٨) و مَثل(٢٥٨) و مسيح (٢٦٥-٢٦٦) و مَنَّ(٢٧١-٢٧٢) و مِلةّ(٢٦٨-٢٢٩) و نصارى (٢٨٠- ٢٨١) و يَحيى (٢٩٠-٢٩١).

1- Arthur Jeefery: For Foreign Vocabulary of the Qur'an (Baroda, Oriental Institute, 1938) X V 1 +311 Pages

و هناك ألفاظ حضارية وردت في القرآن الكريم مثل: خَمر(١٢٥-١٢٦) و كأس (٢٤٥-٢٤٦) و كُوب (٢٥٢) ، و درهم (١٢٩-١٣٠) و دينار(١٣٣-١٣٥)، و تابوت (٨٨-٨٩) و سِراج (١٦٦-١٦٧) و مِقلاد (٢٦٧-٢٦٨) ، و الألفاظ المترابطة بالكتابة، مثل : رَقّ (١٤٣) و سِجلّ (١٦٣-١٦٤) و سَطرَ (١٦٩-١٧٠) و سِفر (١٧٠-١٧١) و قُرآن (٢٣٣-٢٣٤) و قِرطاس (٢٥٣-٢٣٦)

و السريانية واضحة في الكثير من هذه الكلمات، او أن بعض التوافق مع لغات أخرى مثل العبرية و الآثورية و اليونانية و غيرها. (١)

إن القول بأن القرآن نزل بلغة قريش فإن أساتذة علوم القرآن لهم رأى مخالف ، فعلى سبيل المثال (قال أبو بكر الواسطي) في كتابه (الإرشاد في القراءات العشر) : في القرآن خمسون لغة، ثم قام بتعدادها و أضاف : و من غير العربية : الفرس و الروم و النبط و الحبشة و البربر و السريانية و العبرانية و القبط. (٢)

و يورد الجواليقي الطبعة الثانية لكتابه (المعرب) منشورات وزارة الثقافة المصرية مطبعة دار الكتب ١٩٦٩ ما قاله المحقق محمد شاكر (و العرب أمة من أقدم الأمم، و لغتها من أقدم اللغات وجوداً، كانت قبل إبراهيم و إسماعيل ، و قبل الكلدانية و العبرية و السريانية و غيرها، بله الفارسية، و قد ذهب منها الشيء الكثير بذهاب مدينتهم الأولى قبل التاريخ. فلعل الألفاظ القرآنية التي يظن أن أصلها من لسان العرب،لا يعرف مصدر اشتقاقها و لعلها من بعض ما فقد أصله و بقي الحرف وحده). (٣)

و قد أسهم المسيحيون، العرب منهم و المستعربون، أعظم إسهام في عملية (هضم) الحضارات الأخرى، و استيطانها في العالم العربي. و دورهم في استيطان الثقافتين اليونانية و السريانية (و لا أقول في ترجمة آثارهما فقط) معلوم، لا سيما في مجال الطب

١- سمير عبده: السريانية – العربية .. الجذور و الامتداد دار علاء الدين- دمشق ٢٠٠٠ ص ٩٢

٢- شيخ الاسلام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي الشافعي : الاتقان في علوم القرآن الجزء الأول ص ١٧٧ الطبعة الرابعة نشر مكتبة و مطبعة مصطفى البابي الحلبي و أولاده- القاهرة ١٣٩٨ هـ

٣- مجلة نوافذ – جدة كانون الأول ٢٠٠٠ ص ١٣

و العلوم و الفلسفة . حتى إنه يحق لنا أن نقول إن النهضة العباسية لم تستطع أن تقوم، في القرنين الثالث و الرابع الهجريين (التاسع و العاشر للميلاد)، إلا بفضلهم. (١)

لقد تضاءل دور اللغة اليونانية في هذه المنطقة، إذ عرب عبد الملك الدواوين و هاجر عدد كبير من الناطقين باليونانية إلى بلاد الروم، و أخذ الشعب ينطق بالعربية. و إذا كان يوحنا الدمشقي يكتب باليونانية مؤلفاته اللاهوتية الشهيرة في أواسط القرن الثامن، ففي القرن العاشر اضطر قسطا بن لوقا البعلبكي إلى التوجه إلى بلاد الروم ليتمكن من اليونانية. إلا أنه لا بد من القول إنه لغاية القرن التاسع هناك فئة من المثقفين حتى من أبناء الكنيسة السريانية يتقنون اليونانية بالكفاية حتى إنهم نقلوا من هذه اللغة إلى العربية أهم الكتابات العلمية و الفلسفية. أما السريانية فقد ظلت متداولة فترة أطول و مع ذلك ما عتمت العربية أن أخذت مكانها كلغة شعبية و لغة الثقافة، و انحصرت السريانية في الطقوس و بعض القرى المنعزلة و لكن مفرداتها لا زالت متداولة في اللغة العامية و في أسماء القرى السورية.

و في ظل الحرية التي أتاحها الخلفاء الأمويون إلى المسيحيين برز تفاعل مهم بين البادية والمدينة كان من نتيجته أنهم لم يقيموا أي انقطاع في مجال الفكر و العلم، بين التراث الجديد و الحضارات القديمة، و على رأسها اليونانية ، فضلا عن الهندية و الفارسية، بل اقبلوا على الإفادة من أطباء اليونان و معارفهم. (و لجأ أعيان بني أمية إلى استشارة هؤلاء الأطباء و تكليفهم بتربية الشباب، بغض النظر عن دينهم المسيحي و اليهودي. و في عهدهم استمرت المدارس اليونانية الصغيرة في دمشق و أنطاكية والرها و رأس العين في نقل المخطوطات اليونانية إلى السريانية. و كان الأساقفة يضيفون إلى وظائفهم الدينية وظائف الأطباء و أساتذة المنطق و المهندسين). (٢)

و نذكر من شعراء بني أمية الأخطل الذي ولد نصرانيا و تبع العقيدة المونوفيزية- السريانية الشائعة بين قبائل غسان. و كان يجاهر بدينه دون حياء و لا وجل . و قضى أيامه

١- مجلة المسرة – حريصا ك ٢ – حزيران السنة ٧٦ /١٩٩٠ الأب سمير خليل ص ١٤٧ و تم الاستعانة بكثير من نقاط بحثه مرجع سابق

٢- فانتيجو : المعجزة العربية ترجمة رمضان لاوند بيروت ١٩٦٠ ص ٤٧

في البلاد الخاضعة للدولة الأموية ، فمدح خلفاء بني أمية كيزيد بن معاوية و عبد الملك بن مروان و الوليد (٦٨٠-٧١٥) حتى سمي شاعرهم الخاص. و برز في مديح أعيان زمانه و كانوا بأجمعهم يفضلون شعره على كل نفيس و ثمين. (١)

و في ميدان الطب كان ابن أثال أشهرهم حيث يصفه ابن أبي أصيبعه (كان طبيبا متقدما، من الأطباء المتميزين في دمشق، نصراني المذهب . و لما ملك معاوية بن أبي سفيان (٦٦١/٤١) دمشق، اصطفاه لنفسه و أحسن إليه. و كان كثير الافتقاد له، و الاعتقاد فيه، و المحادثة معه ليلا و نهارا) . (٢) أما أبو الحكم ، فإنه (كان طبيبا نصرانيا، عالما بأنواع العلاج و الأدوية ، و له أعمال مذكورة و صفات مشهورة. و كان يستطبه معاوية ابن أبي سفيان (٤١-٦٦١/٦٠ -٦٨٠) ، و يعتمد عليه في تركيبات أدوية لأغراض قصدها منه) (٣) ثم تبعه ابنه الحكم الدمشقي في المهنة، و (كان يلحق بأبيه في معرفته بالمداواة و الأعمال الطبية و الصفات البديعة،و كان مقيما بدمشق) . (٤) و خلف ابنا، عرف بأبي الحسن عيسى، (و هو المشهور بمسيح ، صاحب الكناش الذي يعرف به و ينسب إليه). (٥) و كان في خدمة هارون الرشيد، و وضع له (الرسالة الكافية الهارونية). و له أيضا (كناش) استشهد به مرارا الرازي في (الحاوي) .

أما أبو زكريا يوحنا بن ماسويه (٧٧٧-٨٥٧ م) فقد كان مدير بيت الحكمة أيام المأمون ، ثم تبعه تلميذه أبو زيد حنين بن إسحاق (نحو ٨٠٩- ٨٧٣ م) الطائر الصيت، أيام المتوكل على الله. و قال فيه ابن جلجل في (طبقات الأطباء و الحكماء) الموضوع صدر سنة ٩٨٧ م : كان (عالما بلسان العرب ، فصيحا باللسان اليوناني جدا ، بارعا في اللسانين بلاغة بلغ بها تمييز علل اللسانين) . (٦)

١- الفيكونت فيليب دى طرازي: عصر السريان الذهبي حلب ١٩٧٩ ص ١١٦

٢- ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء بيروت ١٩٥٢ ص ١٧١

٣- = = = : = = = = = مرجع سابق ص ١٧٥- ١٧٦

٤- = = = : مرجع سابق ص ١٧٦- ١٧٧

٥- = = = : = = = ١٧٧-١٧٨

٦- ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي المعروف بابن جلجل : طبقات الأطباء و الحكماء، تحقيق فؤاد السيد (القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ١٩٥٥) ص ٦٨

والأسماء كثيرة و متعددة لمسيحيين ساهموا في النهضة العربية أبان الفترة التي ندرسها من بختيشوع و جبريل بن بختيشوع، و يوحنا ابن البطريق،وحنين بن اسحاق، و يعقوب بن إسحاق الكندي ، و ثابت بن قرة.

و علينا أن لا ننس الشيخ أبو زكريا يحيى بن عدي (٨٩٣-٩٧٤ م) تلميذ أبي بشر متى و ابي نصر الفارابي، فقد اشتهر عشرة من تلاميذه هم : أبو القاسم ابن علي بن عيسى (٩١٤- ١٠٠١ م) ابن الوزير، و أبو سليمان محمد ابن ظاهر السجستاني صاحب (صوان الحكمة) و أبو علي عيسى بن زرعة (٩٤٢-١٠٠٨) مكمل تعليم أستاذه في اللاهوت ، و أبو الخير الحسن بن سوار .. المعروف بابن الخمار (٩٤٢-١٠١٧م) و أبو علي ابن السمح ، و أبو بكر عبد الله بن الحسن القومسي، و أبو الحسن علي بن محمد البديهي، و أبو حيان التوحيدي ، و أبو علي نظيف بن يمن مدير البيمارستان العضدي ، و أحمد ابن محمد مسكويه. فستة منهم مسلمون، وأربعة مسيحيون (عيسى بن زرعة، و ابن الخمار، و ابن السمح ، و نظيف) . (١)

إن النهضة العربية بكل أبعادها الذي تجلت به في العصرين الأموي و العباسي قامت على تفتح حكماء الإسلام على الحضارات القديمة، من سريانية و يونانية و فارسية و هندية و عدم تعصبهم إطلاقا ، اللهم إلا أيام المتوكل، في كفاحه ضد المعتزلة و إلى حد ما ضد النصارى من ناحية،و على اندماج النصارى في الحضارة العربية و الدولة الإسلامية ، بلا تحفظ و لا تأخر ، من ناحية أخرى. (٢)

قيمة المساهمة في الثقافة العربية

إن المساهمة الفكرية التي قام بها المسيحيون في هذه المنطقة كثيرة ومتعددة خلال الألفي عام المنصرم، يكفي أن نذكر ما نقله هؤلاء في القرنين التاسع و العاشر من

١- الأب سمير خليل، تحقيق، مقالة في التوحيد للشيخ يحي بن عدي (٨٩٣ -٩٧٤) سلسلة التراث العربي المسيحي رقم ٢ جونيه ١٩٨٠ ص ٣١-٣٣

٢- الأب سمير خليل: مجلة المسرة مرجع سابق ص ١٥٠

أعمال كبار الفلاسفة و الأطباء و الرياضيين اليونانيين كان في أساس ازدهار عصر المأمون المشهور، و الذي يضعه كل عربي في أوج حضارته و ثقافته. و قد ساهم المسيحيون على قدر المسلمين في تحقيقه وعظمته. و في القرن الثاني الهجري، عندما تغلغلت الذهنية الإيرانية و بدأ أثرها في مناهج الحياة و التفكير، بل في الخلافة ذاتها مع العباسيين، توجهت العروبة شطر الغرب لترد عن نفسها هجمة الشعوبية المستندة إلى مساهمة فارسية كبرى في الصوفية و الأدب. و كان الجاحظ من بين هؤلاء الذين استشفوا في الفكر اليوناني رافدا و موردا. بيد أن الذين توفقوا في إنجاح معجزة القرآن بين العربية و اليونانية إنما هم المترجمون و الفلاسفة المسيحيون.

إن ثقافة و جدارة هؤلاء الأطباء و علماء الفلك و الفلاسفة هي التي لقنت و علمت أهل الفكر من رجال العرب الناطقين بالضاد، و مهدت لهم سبيل التقدم و الرقي في طريق العلم و المعرفة. و كما قال أبو يوسف الكندي (ينبغي لنا أن لا نستحي من استحسان الحق و اقتناء الحق من أين أتى، و إن أتى من الأجناس القاصية عنا و المباينة لنا). (١)

و يقول جاك بيرك: (اللغة العربية لا تكاد تنتمي إلى عالم الإنسان، إذ يبدو أنها بالأحرى معارة له.. إن فضيلة الكلمة مستمدة من شكلها و صوتها و إيقاعها أكثر مما هي مستمدة من نوع تطابقها مع حقائق الحياة اليومية) و أن (الكتابة العربية أكثر إيحاء منها إعلاما). (٢)

التاريخ سجل لفعاليات البشر و إنجازاتهم و شؤونهم. و هكذا يرى البعض أن التاريخ يكشف عن فعاليات و نشاط فئات تصنعه: النخبة والأشراف ، و الجماهير و الأمة . (٣)

١- محمد عبد الهادي أبو ريدة: رسائل الكندي الفلسفية دار الفكر العربي – القاهرة ١٩٥٠ الجزء الأول ص ١٠٣

2- Jacques Berque: The Arabs: Their History anf future، translated by Jean Stewart، preface by Sir Hamilton Gibb (London: Faber and Faber، New York: Prager ، 1964) P.P 25، 51 and 190-191

٣- مجلة المستقبل العربي – بيروت العدد ٢٦٥ ٢٠٠١/٣ ص ١٣٨ د. عبد العزيز الدوري

الهجرة المسيحية بين حسناتها و سيئاتها

إيكون القرن العشرين طوى صفحات مجتمعات عمرت آلاف السنيين، و شهدت أيضا احتضار المسيحية في الشرق ؟

في شمال أفريقيا، موطن القديس أوغسطينوس و القديس سيبيرمان، تلاشت المسيحية الأصلية في القرن الثاني عشر، و في أسبانيا موطن ابن حزم و ابن رشد، اختفى الإسلام في القرن السابع عشر.

و مبعث هذا السؤال هي المخاوف التي تنتاب بعض المسيحيين من تراجع نسبتهم المئوية في أرجاء العالم، و نحن نلمس ذلك حتى في سوريا الطبيعية، و إن كان النقص هنا حاصل نتيجة الهجرة و تحديد النسل و العنوسة بين الفتيات.

لقد مثل المسيحيون عام ١٩٠٠ (٣٤ %) من إجمالي سكان العالم و سنة ١٩٥٥ (٣١%) و سنة ١٩٨٤ (٢٧%) أما سنة ٢٠٠٠ فسيكون عددهم (١٦%) فقط. (١) و هكذا باتوا من الأقليات في كثير من بلدان العالم .

و ذكِرَ أن مساحة سوريا في عهد الإمبراطورية الرومانية كان (١٠٩) ألف كيلو متر مربع و عدد سكانها في تلك الفترة (أي ١٤م) ٦ ملايين، فيما وصل عدد السكان في القرن الثاني بعد الميلاد بين ٥ و ٦ ملايين. (٢)

و يمكن أن نتبين أن هذه المساحة كانت تشمل خطأ يبدأ من شاطئ البحر المتوسط و إلى الداخل بمئة كيلو متر، أما نسبة عدد السكان إن كانت حقيقية أم لا فهذا ما لا يمكن نفيه أو تصديقه. أما مساحة سوريا في عهد الإمبراطورية العربية فقد كان (ثلث مجموع مساحة إسرائيل و الأردن و لبنان و سوريا مجتمعة) ٢٢٢ ألف كيلو متر مربع. أما

١- مجلة المسرة- حريصا عدد ايار – حزيران ١٩٩٢ ص ٤١١

2- J.J. Van Nostrand (Roman Spain) in: Tenney Frank، ed.، an Economic Survey of Ancient Roman، 6 Vols. (Baltimore، mad: Johns Hopkins University Press، 1930-1940)، Vol .3، P.148

المساحة المأهولة في سوريا فهي ١٠٩ ألف كيلو متر مربع و عدد السكان السوريين بين ٣-٤ ملايين. (١)

و في نهاية القرن الثالث الهجري كان عدد سكان سوريا أربعة ملايين إلا ربعاً معظمهم من السريان ثم الروم و ٢٠٠ ألف مسلم، و في نهاية القرن الثالث الهجري أصبحت نسبة الإسلام أولا ثم الروم و أخيراً السريان. (٢)

و حسب المعلومات الموجودة في السجلات التركية التي تضم نتائج إحصاء جرى في عهد سليم الأول، و آخر في عهد سليمان القانوني، و هي معلومات موثوقة، كان سكان حلب أقل من ٧٠٠٠٠ نسمة في عام ١٥١٩، و كان سكان دمشق على ما يبدو بنفس العدد. و حسب ما قال المؤرخ التركي و. ل . باركان نستنتج من هذه السجلات أن أجمالي سكان سوريا (بما في ذلك فلسطين و منطقة أدنه) في عشرينات القرن السادس عشر بلغ ٥٧١٣٦٠ نسمة، بينما بلغ قبل الفتح الإسلامي عدد سكان سوريا ٤ ملايين نسمة. (٣)

و كانت المعلومات الإحصائية عن سوريا نادرة جدا، إلى حد لا توجد أرقام موثوق بها حتى عن فترة القرن التاسع عشر. و قد تراوحت بعض التقديرات التي قدمها موظفو القنصليات البريطانية في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر و التي اعتمدت على عوائد الضرائب ما بين مليون و ١٨٦٤٠٠٠ نسمة . غير أن معظم تلك التقديرات قد تراوحت بين ١٢٥٠٠٠٠ و ١٤٥٠٠٠٠ و مع اندلاع الحرب العالمية الأولى، ارتفع الرقم إلى ما يربو على ٣,٥ ملايين . (٤)

كما كانت نسبة المسيحيين في مصر و سوريا و الأردن و العراق ٢٥ بالمئة ١٩١٤ . (٥)

1- J.J. Van Nostrand ، Ibid P. 149

٢- سمير عبده: السريان .. المسيحيون – المسلمون دار علاء الدين – دمشق ٢٠٠٠ ص ٢٦-٢٧

٣- أ . آشتور: التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى ترجمة عبد الهادي عبله دار ابن قتيبة- دمشق ١٩٨٥ ص ٢٦

4- Charles Philip Issawi، ed: The Economic History of the Middile East، 1800-1914 C Chicago، 111: University of Chicago Press 1960 P. 209

٥- مجلة المسرة – حريصا عدد ايار- حزيران السنة ١٩٩١/٧٧ ص ٤٢٩

و يشكل أبناء الكنائس المسيحية الكاثوليكية المقيمين في أوطانهم أقلية في الشرق الأوسط، حسب تقارير صدرت عن الدوائر الفاتيكانية (١٩٨٨). فهم يعدون ثلاثة ملايين و نصف المليون فقط من أصل ٢٨٠ مليونا يؤلفون سكان الواحد و العشرين بلدا في المنطقة الممتدة من الخليج العربي إلى بلاد المغرب. و هذا التضاؤل المرعب ناجم عن هجرة الكاثوليك إلى أوستراليا و الولايات المتحدة و البرازيل و كندا. أما إذا أضفنا إلى كل كنيسة أبناءها الذين في الشتات فعددهم يقارب الخمسة ملايين و منتين و ثلاثة و تسعين ألفا و ست مئة مسيحي ، موزعين كما يلي:

بطريركية أنطاكية للموارنة: مليون و ست مئة ألف في الشرق،و ٦٧٥٠٠٠ في بلاد الاغتراب – بطريركية أنطاكية للروم الملكيين الكاثوليك : مليون وخمسة عشر ألفا في الشرق و ٤٥٤٠٠٠ في بلاد الاغتراب – بطريركية أنطاكية للسريان : ٩٩٨٠٠ – بطريركية الاسكندرية للأقباط : ١٦٨٥٠٠- بطريركية القدس للاتين : ٦٤ ألفا، يضاف إليهم ٦٠٥ آلاف من اللاتين الموزعين على النيابات الرسولية في العربية السعودية و مصر و الإمارات العربية و الكويت و إيران و العراق و لبنان و سوريا و تركيا و اليمن- بطريركية بابل للكلدان : ٥٧٦٣٠٠ في العراق و ٥٠ ألفا في بلاد الاغتراب- بطريركية كيليكيا للأرمن : ٢٤٦ ألف في الشرق و ٩٤ ألفا في بلاد الاغتراب. (١)

و في عام ١٩٥٦ وصل نسبة المسيحيين في الجمهورية العربية السورية إلى ١٥ بالمئة و في نهاية عام ٢٠٠٠ وصل عددهم إلى ٧,٦ % من مجمل عدد السكان حسب مصادرنا موزعين على عدة طوائف، و على رأسها طائفة الروم الأرثوذكس الذين تبلغ نسبتهم ٣٤ في المئة تليهم طائفة الروم الكاثوليك ٢٢ في المئة و السريان الأرثوذكس ١٥ في المئة و تتوازع بقية الطوائف النسب العددية الباقية و على رأسها طائفة الأرمن بأقسامها الثلاثة : الأرثوذكسية و الكاثوليكية و البروتستانية. و طبقا لهذه البيانات يزيد عدد أبناء الطوائف الأرثوذكسية قليلا عن الكاثوليك بمن فيهم البروتستانت حيث تتجاوز النسبة ٦٠ في المئة و قد أسهبنا في وصف ديمغرافية المسيحيين في سوريا في دراسة سابقة لنا. (٢)

١- صحيفة النهار- بيروت ٢٠٠١/٤/٣ ص ١٦ عرض لكتاب كلود لوريه: مسيحيو الشرق في بلاد الشام جمانة ابو الروس مفرج

٢- سمير عبده: المسيحيون السوريون : قديما و حديثا دار علاء الدين – دمشق ٢٠٠٠ ص ٥٠-٦٠

هجرة المسيحيين

في الاجتماع الذي عقده رؤساء الكنائس في الشرق الأوسط في بكركي بتاريخ ٢٠و ٢٠٠٠/١١/٢١ كان على جدول أعمالهم من جملة المواضيع ظاهرة الهجرة. حيث تطال الهجرة المسيحيين و المسلمين على السواء، و هي نزيف بشري يصيب هذه المجتمعات ككل، لكن هذا النزف يفتك بالنسيج الاجتماعي في شكل خاص، عبر استهدافه الشباب و أصحاب الكفاءات، و هو ما يسمى بهجرة الأدمغة، الأمر الذي يقلق الجميع، و يحمل على البحث الجاد لاتخاذ القرارات الحاسمة و استخدام الوسائل العملية الناجعة للحد من ظاهرة الهجرة.

و تشجع بعض الدول الغربية و بعض المنظمات العربية الهجرة من الشرق بحجج مختلفة، و عملية الهجرة في تزايد مستمر لم يسبق له مثيل. (و قد هاجر من اللبنانيين في السنوات العشر الأخيرة من القرن العشرين مليون لبناني، على ما دلت عليه الإحصاءات، ولا يزال يغادره كل شهر ما فوق الخمسة عشر ألف مواطن و معظمهم من الشباب حملة الشهادات العليا. و ما القول عن باقي بلدان هذا الشرق التي يغادرها المسيحيون بوجه خاص، فيتناقص عددهم يوما بعد يوم، بعد أن كان هذا الشرق بأكمله مسيحيا، على ما دعي في فترة من الزمن). (١)

و قدر البعض هجرة الشباب من لبنان بـ ٢ في المئة سنويا، و هو ما يعني نزفا سنويا من المجتمع المفكر و الفاعل و المثقف و القادر. كما بينت بعض الإحصاءات أن نصف اللبنانيين يتمنون الهجرة، و أن ربعهم يحاولون ذلك جديا. (٢)

وهناك أرقام توضح أنه يوجد ١٥٠ ألف مسيحي لبناني في أوربا، و خمسون ألف من السريان الأرثوذكس، و ألفان من الأقباط، و ثمانية آلاف من الأرمن. (٣) و حسب ما نشر عام ١٩٧٨ أن ٧٥ بالمئة من

١- صحيفة الانوار – بيروت ٢٠٠٠/١١/٢١ ص٤

٢- صحيفة النهار- بيروت ٢٠٠٠/١٠/٢٠ ص ١٥

٣- = = = ٢٠٠٠/١٠/١٧ ص ٦

المهاجرين اللبنانيين في أوستراليا هم من المسيحيين(١). و في تحقيق أجري عام ١٩٨٠ كان ٢٣ بالمئة من المهاجرين اللبنانيين في أوستراليا من الأرمن. (٢)

و كانت نسبة التركيب الديني للبنانيين المولودين في لبنان و المقيمين في أوستراليا على التوالي: كاثوليك (بالمئة) عام ١٩٧٦ (٤٣,٢) و عام ١٩٨١ (٢٣,٧)، أرثوذكس (بالمئة) عام ١٩٧٦ (١٥,٧) و عام ١٩٨١ (٢٧,٩) و المسيحيون الآخرون كانوا عام ١٩٧٦ (٧,٣) و عام ١٩٨١ (٧,٥) أي أن المجموع العام (٥٩,١) . (٣)

و بين أعوام ١٩٩٠ و ٢٠٠٠ هاجر نحو مليون لبناني، و ثمة عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألفا من شبابنا يحملون شهادات عليا و يهاجرون شهريا إلى الخارج بحثا عن عمل. و إذا استمرت الحال على ما هي عليه فسيأتي يوم لا تبقى فيه شهادة مسيحية في الشرق عموما و لبنان خصوصا ، الذي كان ملجأ للمسيحيين في الشرق ، بفضل الحرية التي كان ينعم بها. (٤)

و يرى البطريرك الماروني مار نصرالله بطرس صفير في شهادة له سبقت ما أوردنا أن (الهجرة المسيحية إلى بلاد الاغتراب كان لها حسناتها و سيئاتها، فمن حسناتها أنها فسحت المجال للبنانيين لأن يتأقلموا حيث توطنوا، و أن يتآخوا مع الشعوب التي يعيشون معها. و قد تمكنوا بعد ثلاثة أو أربعة أجيال من أن يكونوا كالمواطنين الأصليين من حيث حب الوطن و التقاليد و العادات، و باللغة، و التعاطي الاجتماعي، و لكنهم في مجملهم حافظوا على ما حملوه من وطنهم الأول لبنان من إيمان بالله، و تمسك بالقيم الدينية و الأخلاقية و الوطنية و الإنسانية و انكباب على العمل المجدي و مواجهة الصعوبات بإرادة ثابتة و عزم أكيد. و هذا ما سمح لبعضهم أن يصلوا إلى مراكز رفيعة، فكان بينهم رئيس الجمهورية أحيانا، و عدد غير قليل من النواب و الحكام و رجال الفكر و القلم و التجارة،

١- صحيفة العمل – بيروت ١٩٧٨/٤/١٣ ص٧ نبيل حرفوش

٢- مجلة المستقبل العربي- بيروت السنة ٩ العدد ٨٧ ايار ١٩٨٦ ص ٨٩ –٩١ هدى زريق

3- C.M.Young (Lebanese Immigration since 1970) in : The Australian People: An Encyclopedia of the nation its people، and their origins (North Ryle، nsw، Australian Angus and Robertson Puplishes 1988

٣- صحيفة النهار- بيروت ٢٠٠١/٣/٨ ص ٤ من تصريح البطريرك الماروني مرجع سابق

و إن كان أيضا من بينهم من يخالفهم الحظ، فعاشوا مغمورين راضين بما قسم الله لهم من نصيب.

أجل للهجرة فوائدها و لولا مساعدة المهاجرين للمقيمين من ذويهم و بخاصة أبان الأحداث المؤلمة التي مرت بلبنان، و لو بمقادير قليلة، لما كانوا تمكنوا من اجتياز المرحلة الصعبة التي اجتازوها.

و لكن للهجرة أيضا مساوئها، و هي تقتلع الناس من جذورهم و محيطهم و تقاليدهم و تبعدهم عن ذويهم و أهل مودتهم، و تمزق أحيانا قلوبهم، و تحرم بلدانهم الأصلية من نشاطهم و مساهمتهم في أعمارها على ما هو جار اليوم في لبنان الذي يفرغ شيئا فشيئا من عناصره الشابة المنتجة الخلاقة لتذهب إلى البعيد، و يقوم مقامها من هم دونها علما و خبرة و إخلاصا للبلد و هذا مؤلم). (١)

في هاتين الشهادتين اللتين أوردناهما للبطريرك الماروني مار نصر الله بطرس صفير ما يفي بالأسباب الحقيقية للهجرة، سواء من ناحية حسناتها و سيئاتها. و يتوسع في هذا الموضوع بطريرك الروم الأرثوذكس اغناطيوس هزيم الرابع مبديا رأيه في هذه الهجرة المسيحية قائلا:

(الهجرة في الشرق الأوسط عامة، هجرة للمسيحيين كما للمسلمين و لكن بطرح موضوع هجرة المسيحيين لأن أعدادهم أقل و بالتالي فإن هجرة واحد من خمسة تختلف عن هجرة واحد من أصل مئة. نحن حريصون على الوجود المسيحي في المنطقة لئلا تبتر شخصية الشرق الأوسط من أعز ما لديها في ماضيها و حاضرها، أي تبتر من الديانات التي فيها، أي المسيحية و الإسلام و اليهودية كدين.و نحن حريصون على ألا يقال يوما إنه لا يوجد إلا ديانة واحدة في هذا الشرق لأن هذا يكون كذبا بالنسبة إلى التاريخ و إلى روحانية الشرق الأوسط.

ربما ينظر البعض إلى الجو العام الذي تعيشه القلة العددية و يرى ما يدعو إلى القلق. و هناك أمور مقلقة في الواقع و أقول بلغة العتب لإخواننا المسلمين الذي نحبهم، و نقول لا يمكن أن تظهر الشخصية المتكاملة للمنطقة من دون الحدث الإسلامي العظيم الذي حصل منذ ١٤ قرنا. لدى بعض المآخذ بروح الأمل. ففي الإعلام مثلا يجب ألا يصور الشرق

١- صحيفة النهار- بيروت ٢٠٠١/٢/٢٦ ص ٦

الأوسط و كأنه لا يوجد فيه مسيحيون. لا أعتقد أننا نرى صورا كثيرة لكنائس في عدد من البلدان العربية، و كأن ذلك نكران و محو للإنسان المسيحي). (١)

هذا فيما يخص لبنان، أما مسيحيو الضفة الغربية فإن السلطات الإسرائيلية تشجعهم على المهاجرة أكثر من المسلمين. (٢) و قد تقلص عددهم بشكل كبير على مدى الخمسين سنة الماضية. و كان عددهم عام ١٩٩٢ (١٤٦٩٩) نسمة، و معظمهم يعيش في القدس . و مما لا شك فيه أن عشرات الآلاف من المسيحيين الفلسطينيين قد تم ترحيلهم. و في حين كان سكان الأردن المسيحيون ٣٠ ألفا عام ١٩٥٠ أصبحوا اليوم نحو مئتي ألف. و يعود جزء كبير من هذه الزيادة إلى تدفق اللاجئين الفلسطينيين خلال عامي ١٩٤٨ و ١٩٦٧. لكن حتى في فلسطين نفسها، ثمة مسيحيون اليوم أكثر من عام ١٩٤٦، أي ١٨٠ ألفا مقابل ١٤٥ ألفا آنذاك. فيما كان عدد مسيحيي لبنان ٣٨٦ ألفا من أصل مجموع سكان هو ٧٩٣ ألفا ، أما اليوم فهو ١,٥ مليون مسيحي من أصل ٣.٥ ملايين نسمة. (٣)

أما في سوريا فإن هجرة سريان منطقة الجزيرة إلى أوربا و كندا هي الأكثر بين الطوائف المسيحية و أصبح لهؤلاء أحياء في بعض المدن تتجول بها و كأنك في سوريا، و هي هجرة تكاثرت منذ الستينات.

و هناك هجرة داخلية كثيفة بين المسيحيين السوريين، من الريف إلى المدينة ، و نلمس ذلك من خلال أوراق النعوات التي تبين قرية المتوفي، بحيث طغت على أسماء سكان المدن الأصليين.

يتضح من خلال الهجرات المسيحية أن الكنائس في هذه المنطقة لم تستمد قوة بقائها من مؤسسات إقليمية أو سياسية، لأن حدود هويتها المحلية كانت في حالة تحرك مستمر، لكنها لا تزال حية لأنها مستمرة تاريخيا في منطقة واحدة، و يمكن بالتالي إضفاء صفة الكنيسة السورية على كنائس المنطقة مجتمعة و وصفها بأنها محلية بالمعنى اللاهوتي الأصلي، لأن الكنائس الحالية التي كانت فيما مضى محلية بالمعنى الكامل للكلمة لا تزال جزءا لا يتجزأ من هذه المنطقة.

١- صحيفة النهار- بيروت ٢٠٠٠/١١/٢٨ ص ١٠

2- Robert Pets: Middle East Policy Magazine. June 2000

٣- صحيفة النهار- بيروت ٢٠٠١/٤/٣ مرجع سابق

و تبقى الهجرة هاجس الكثير من المسيحيين،و يذكر كلـود لوريبـه أن حوالـي ثلث مسيحيي الشرق (النصف بحسب تقديرات أخرى) غـادروا أوطانهـم خـلال الأعوام المنـة و الخمسين المنصرمة. و الهجرة تزيد من ضعف الأقليـات و مـن صعوبـة جـهودها للحفـاظ على مواقعها في بيئتها الاجتماعية. فهي و إن لم تواجه بالضرورة محيطا معاديـا، تقيـم فـي مجتمعات يحاول كل فريق فيها، كما في أي مكان في العـالم، الدفـاع عـن مصالحـه الخاصـة. يضاف إلى ذلك أن المسيحيين الذين يهاجرون هم من الذين لديهم بعض المـال أو مـن الذيـن يتمتعون بكفاءات مهنية أو جامعية. (١)

و هذه الهجرة تغذي نفسها بنفسها إذ يسعى المهاجرون إلى جذب أقاربهم إلى بلاد الغربة. و من المفارقات في وضع مسيحيي سوريا أن المستوى التعليمـي الجيد الـذي امنتـه لهم مدارس طوائفهم، مكنهم من مواجـهات صعوبـات الحيـاة، و هـذا مـا سـهل عليـهم أيضـا اتخاذ قرار الهجرة.

و تأتي شهادة من مغترب، كان والده اللبناني ممن هاجر منـذ زمـن بعيـد، و عـاش في الغرب، و أصبح هذا المهاجر من كبار أساتذة التاريخ لتلقي بظلالها عما أصبح ينظر إليه في اغترابه للشرق قائلا:

أن تكون مشرقيا Levantine معنـاه أن تعيـش فـي عـالمين فـي آن واحـد و دون الانتماء إلى أي منهما، و أن تتمكـن مـن استيعاب الأشكال الخارجيـة التـي تـدل علـى تملـك جنسية ما أو دين ما أو ثقافة ما دون تملكها فعليا. و أن تكـون مشرقيا معنـاه عدم الوقـوف على سلم قيم خاص بك، و عدم القدرة على الإبداع بل التقليـد، و لكـن ليـس التقليـد المحكـم، فحتى ذلك يتطلب أصالة ما. أن تكون مشرقيا معناه ألا تنتمي إلى مجتمع معين و ألا تمتلك ما هو في حوزتك. هذا واقع يتجسد في الضياع و الادعاء و التشاؤم و اليأس. (٢)

١- صحيفة النهار – بيروت ٢٠٠١/٤/٣ مرجع سابق

2- Albert Habib Hourani: Syria and Lebanon : A Political Essay. London : Oxford University press 1946 P. 171

الطوائف المسيحية في سوريا

من جذع أنطاكية نبتت فروع أربعة في سوريا: السريانية و الآشورية و الأرمنية و الملكية. و بعد ألف سنة بدأ موسم التطعيم بمحاولة ليتنة الموارنة و بروز الاتحاد مع الكنيسة الرومانية من جانب الأرمن الكاثوليك و الكلدان و السريان الكاثوليك و الروم الكاثوليك. ثم خرج عن الشجرة الأنطاكية جذور عارضة لاتينية و بروتستانتية أو انكليكانية و أخيرا أسقفية إنجيلية. و سيجد الباحث نصب عينيه أربع عشرة طائفة إذا لم ينس بطريركتي القدس الأرمنية و الأرثوذكسية.

و من المعلوم أن الخلاف المسيحي المسيحي بدأ في القرنين الرابع و الخامس الميلادي حول اتخاذ اللاهوت و الناسوت في السيد المسيح، و انقسموا حينئذ إلى طوائف مختلفة عقائديا (الملكية و اليعاقبة و النساطرة) و هذه التسميات تعني في الوقت الحالي الروم و السريان و الآشوريين، و ثقافيا (القبط، الأرمن، السريان، و الروم... الخ). و يعود هذا الانقسام ، عدا عن كونه لاهوتيا إلى أمور سياسية و ثقافية تاريخية و حتى فلسفية.

يقول الشيخ حسن خالد: إن من العرب من النصارى من لا يحصى عدده إلا الله تعالى. (١) و واقع الحال أن المسيحيين في هذه المنطقة لهم هويتهم العربية، حتى أن كنيسة الروم الأرثوذكس سميت كنيسة العرب. إن نضال مسيحيي المنطقة يبين كم كان دورهم عظيما في عهد النهضة و في نيل استقلال بلادهم و هم لا ينكرون هويتهم العربية، لا كما ذكر أحد الكتاب المصريين من تنكر للعروبة (إن التأسيس الماضوي لقضية الهوية العربية لمصر هو بلا رصيد تقريبا . و ما نحمله نحن المصريين ليس سوى بعض المنقولات الثقافية التي تتفق معنا). (٢)

١- الشيخ حسن خالد : موقف الاسلام من الوثنية و اليهودية و النصرانية سلسلة (الدراسات الاسلامية) معهد الانماء العربي – بيروت ط ١ ١٩٨٦ ص ٢٠٦

٢- صحيفة الاهرام – القاهرة ٢٠٠٠/٢/٢٤ ص ٢٦ محمد البدري مرجع سابق

و إذا عدنا إلى التاريخ نرى أنه منذ مطلع القرن السادس عشر, أي منذ سقوط دولة المماليك و قيام الدولة العثمانية و استقرارها في بلاد الشام, عرف لبنان, و المنطقة كذلك تغيرات عديدة, كان لها أهمية كبرى في رسم الخط التاريخي لحكم العثمانيين في لبنان, منها التوقف عن اعتماد اللغة العربية لغة رسمية للدولة, و اعتماد اللغة التركية محلها. و قد دعا هذا الأمر الخطير إلى تيقظ الكنيسة المسيحية و البدء البطيء بإحياء التراث العربي, و كان لبنان سباقا في هذا المضمار.

و في سوريا الطبيعية العديد من الطوائف المسيحية, و سنقتصر بالحديث عن بعضها, و هي الكبيرة بحجم سكانها مع تناول الطوائف الأخرى بشكل موجز.

و ما سوف نذكره هنا يكمل ما تناولناه من أمور هذه الطوائف في كتبنا عن المسيحية السورية.

السريان الأرثوذكس

السريان الأرثوذكس و هم في بدء الألف الثالث في وضع لا يحسدون عليه, فرغم عظمة أمتهم و تاريخها المشرف و الكبير في حياة سوريا, فإن هاجس الهجرة يراوحهم, خاصة إلى أوربا و السويد, فقد بات عددهم في تلك البلدان لوحدها غير المناطق الأخرى من العالم ١٨ في المئة من عددهم الإجمالي, و بدأت الأجيال القديمة تفتقد في أحفادها حبهم للغتهم و ديار تاريخهم بفعل (تغريبهم).

يقول الفيكونت دى طرازى: من الأمم القديمة التي يحق لها أن تفاخر سائر الأمم و تنافسها في تلك المزايا الفريدة الأمة السريانية ذات الإحسان العميم على العموم و الآداب و الفنون. و ما الآثار التي خلفتها في تلك المناحي إلا برهان لا على ما أسدته من المنن الجمة للعالم قاطبة في الأجيال الخالية. و كفاها شرفا استنباطها صناعة الكتابة و تلقينها لسائر الشعوب التي أصبحت مدينة لصنيعها العظيم. و غير خاف أن الفونيقيين(الفينيقيين) الذين أحدثوا صناعة الكتابة ليسوا إلا فنة من الأمة الآرامية السريانية استوطنت السواحل اللبنانية و روجت أسواق التجارة في أنحاء العالم القديم. ذلك ما حمل أساطين المؤرخين أن يطلقوا على الأمة السريانية بكل حق و صواب لقب (أميرة الثقافة) و (أم الحضارة). (١)

١- الفيكونت فيليب دى طرازي : عصر السريان الذهبي مرجع سابق ص ٧

و تبدأ قائمة بطاركة السريان من مار بطرس الرسول مؤسس الكرسي الأنطاكي عام ٣٧ الذي أقام نائبا و خليفة له القديس أفوديوس عام ٦٧ و مار اغناطيوس النوراني ثالث بطاركة أنطاكية الشهيد عام ١٠٧. و بقي هذا الكرسي في أنطاكية إلى عهد مار سويريوس الأنطاكي الكبير تاج السريان الذي جلس على الكرسي عام ٥١٢ و نفاه القيصر يوسطنيان عام ٥١٨ و توفي في مصر بتاريخ ٨ شباط ٥٣٨. و أخذ هذا الكرسي يتنقل في بلاد ما بين النهرين بحسب الظروف و قد أتخذ البطاركة مراكز كثيرة لهم أشهرها دير مار برصوم قرب ملطية و كنيسة العذراء (مريمانا) في ديار بكر و غيرهما. و منذ عام ١٢٩٣ نقله البطريرك اغناطيوس الخامس ابن وهيب إلى دير الزعفران قرب ماردين و بقي هناك حتى عام ١٩٣٣ حين نقله البطريرك أفرام الأول إلى حمص في سوريا و عام ١٩٥٩ نقله البطريرك يعقوب الثالث إلى دمشق و ما يزال فيها. (١)

إن الضعف الثقافي الذي لاحق السريان أبقى أثره في عدم معرفة الجيل الحالي لتاريخه المشرف, و بالتالي تبعيته لكنيسته السريانية الأرثوذكسية هي بحكم الاستمرار دون الإصلاحات التي طالت الكنائس الأخرى.

و إذا كانت اللغة السريانية هي لغة المسيح و المسيحية, فإن هذه اللغة التي يتشوق الكثير من الناس لتعلمها لم تلق الاهتمام الكافي لتدرس لطالبيها, و بقيت محصورة ضمن رجال الدين, و هذا ما أسهم في ضعفها و عدم استيعابها للجديد من العلوم.

إن عمل المؤسسات الأهلية في الكنيسة السريانية محدود و لا يصل إلى مستوى ما يراه العلمانيون في ذلك, لنذكر على سبيل المثال إنه يوم ١٢ أيلول ١٩٤٣ تم انتخاب مجلس ملي لكنيسة الشام (٢) و من يومها يتم تعيين الأعضاء تعينا.

أما على الصعيد السياسي, فإن أول تمثيل سياسي نيابي كان للسريان في سوريا في عام ١٩٣١ في منطقة الجزيرة و كان سعيد اسحق. (٣) و كاد عيسى سرياني أن يصل إلى الجمعية التأسيسية في الانتخابات النيابية التي جرت عام ١٩٤٩ عن مقعد حمص و لكنه خسر المعركة بفارق ألف صوت, و لهذا لم تمثل هذه المنطقة في كافة المجالس النيابية.

١- مجموعة مؤلفين : الكنائس المسيحية في لبنان مركز الابحاث و الدراسات المسيحية في الشرق – بيروت ١٩٨٦ ص ٢٥ المطران ثاو فيلوس جورج صليبا .

٢- المطران جريس القس بهنام : يوميات مطران دار ماردين – حلب ١٩٩٨ ص ٤

٣- سعيد اسحاق : صور من النضال الوطني مطابع الف باء – الاديب – دمشق ١٩٧٨ ص ٢٠

و مثل السريان- لأول مرة في تاريخهم- بحقائب وزارية في سوريا منذ عام ١٩٨٢ و إلى ٢٠٠٠ و بمنصب محافظ مرتين إلى عام ٢٠٠١. كما دخل سرياني إلى مجلس الوزراء الأردني, لأول مرة عام ١٩٩٨ و بمنصب وزير مالية و لا يزال (٢٠٠١). كما أصبح للسريان لأول مرة نائب في البرلمان اللبناني عن دورة ١٩٩٢-١٩٩٦ و تبعه نائب آخر عن دورة ١٩٩٦-٢٠٠٠ .

و يعتبر هذا التمثيل في غير مقاصده الأيديولوجية و التكنوقراطية تكريماً للسريان سكان البلاد الأصليين.

الموارنة

الأرضية المورانية هي أرض بيت مارون, من أفاميا إلى جوار العاصي (دير مارون) إلى جبل لبنان في نصف دائرة تحيط بالقاعدة المسيحية الأم : أنطاكية.

و الطائفة المارونية هي أقدم الطوائف الكاثوليكية في الشرق, و لكنها تتميز باستقلاليتها الدينية الطقسية مع ولائها الديني للبابوية. أما من الناحية الإدارية فقد منح الخلفاء المسلمون منذ أيام الوليد بن عبد الملك للموارنة وضعا خاصا في الإدارة و الإعانة الاقتصادية, و هذا الوضع صار مع الزمن تقليدا مستمرا.

و قد كان للموارنة دور أساسي و تأسيسي في قيام لبنان الدولة و الكيان. و تشهد وقائع التاريخ منذ فترة طويلة أن هذا التأسيس جاء ثمرة نضال طويل دفعوا ثمنه من دمهم (١٨٦٠) و من إصرارهم (١٩٢٠), لقد وجدوا أن مؤسساتهم الروحية و الثقافية لا يمكن أن تمارس دورها إلا في ظل الحرية.

في إحصائية نشرت عن عدد الموارنة في العالم لعام ١٩٨٦ كانت كالتالي:

١٢٠٥٧٠٠ لبنان, ٢٨٠٠٠ سوريا, ٧٠٠٠ الأراضي المقدسة, ٤٠٠٠ الكويت, ٦٠٠٠ مصر, ١٢٥ السودان, ٥٠٠ تركيا, ٥٠٠٠ قبرص, ١٠٠٠ إيطاليا, ٤٠٠٠٠ فرنسا, ١٠٠٠ بلجيكا, ١٠٠٠ انكلترا, ١٠٠٠٠٠٠ الولايات المتحدة الأمريكية, ١٢٠٠٠٠ كندا, ١٥٠٠٠٠٠ البرازيل, ٧٠٠٠٠ الأرجنتين , ١٥٠٠٠٠ المكسيك, ١٢٠٠٠٠ استراليا, ٣٠٠٠٠ فنزويلا, ٢٠٠٠ غوادلوب, ١٠٠٠ نيوزيلنده, ٢٥٠٠٠ الأرغواي, ١٢٠٠٠ أفريقيا الجنوبية, ٢٠٠٠ غانا, ٥٠٠ المارتينيك.

و الموارنة في سوريا: حلب ٣٠٠٠ ، اللاذقية ٢٠٠٠٠، دمشق ٥٠٠٠ .(١)

و يحق للموارنة أن يعتزوا بالدور الذي أرسى تحرر لبنان من السيطرة العثمانية و الأجنبية على مفهوم الانتماء العربي، و ليس على أساس الانتماء الطائفي أو المذهبي . و بهذا كان للموارنة، و لا شك، موقع ريادي في تقرير الحركة التحررية العربية في أوساط واسعة من طوائف لبنان الأخرى. و كان هذا المضمون الحقيقي فعلا للنهضة العربية الحديثة التي أخذت فيه غالب ظاهرها مظهر المحافظة على التراث و اللغة و الثقافة العربية و إحيائها و تطويرها.

إن الدور الذي لعبه الموارنة في الحفاظ على اللغة العربية نابع من كون لغتهم الأصلية هي السريانية و هي بمثابة الأم للغة العربية، أو التزاوج بين اللغتين، و لهذا ليس غريبا اهتمامهم الكبير باللغة العربية.

كما لا يمكن أن ننكر كوكبة أعلام الموارنة في بعثهم للنهضة العربية و ما انجلت إليه، حيث إبداعاتهم التاريخية الطابع: تحرريا و لغويا و ثقافيا في صنع هذه النهضة ، من أمثال المعلم بطرس البستاني و أحمد فارس الشدياق و مارون النقاش و سليمان البستاني و البساتنة الآخرين، و مي زيادة و أنطون الجميل و جبران خليل جبران و أمين الريحاني و شبلي الملاط و نعوم مكرزل و إيليا أبو ماضي و أمين نخلة و عبدالله غانم و الياس أبو شبكة و فيليب حتي و الأخطل الصغير (بشارة الخوري) و بولس سلامة و مارون عبود و أنطون قازان و يوسف إبراهيم يزبك و غيرهم من العظماء.

على أساس من هذا التراث الكفاحي في التحرر و الثقافة و الإبداع، هذا التراث اللاطائفي العربي المضمون، كما تبدو مصطنعة، مختلفة، زائفة تلك المحاولات التي رامت دفع الموارنة بالتقوقع، و بالانعزال و الانفصال عن بيئتهم العربية الطبيعية في التاريخ و الجغرافيا و الثقافة، و عن الجسم العربي الذي كانت سلامة صحته كما اعتلالها سلامة لهم و للبنان أو اعتلالا .(٢)

لقد عاش الموارنة منذ إعلان لبنان الكبير و هم يشعرون بأنهم أسياد اللعبة و رئيس الجمهورية كان دائما الورقة الأساس في مراكز القوى السياسية في لبنان، يرادفه

١- مجموعة مؤلفين : الكنائس المسيحية في لبنان مرجع سابق ص ٣٧

٢- صحيفة النهار – بيروت ٢٠٠١/٢/١٥ ص ١٥ ميشيل اده

قوة الكرسي البطريركي في بكركي. ((و منذ نصف قرن و الجماعة المارونية، تجابه العواصف و الأزمات بحيث كادت هذه الحالة أن تتحول مع الحرب إلى أزمة وجودية، بعدما تمثلت بانحسار قاعدتها الجغرافية في لبنان (و تردي أوضاعها الاقتصادية) و إفقار طبقتها المتوسطة الدخل، و من ثم التهجير و الهجرة وصولاً إلى فقدان رموز قيادتها السياسية!)). (١) و لم يعد الموارنة أسياد اللعبة السياسية و شبكة اتصال و جسر عبور نحو الغير، كما كانوا في السابق.

و قد أدت الحرب الأهلية إلى تعاطي رجال الدين المسيحي للسياسة بشكل علني و واضح و هذا ما أشار البعض: (إننا نفهم بعض رجال الدين في السياسة في سنوات الحرب، و لكننا لا نقر ذلك. و قد يكون من أسباب ازدياد الدور السياسي لرجال الدين هو زيادة دور الإكليروس الماروني عندما جعلت بكركي مقراً للقرار السياسي، فانعكس ذلك حكماً على الطوائف المسيحية الأخرى، التي وجدت نفسها في مراحل عديدة أمام تساؤلات مصيرية معلقة ، فأخذت تدرس وسائل مواجهة الاحتمالات. إن ذلك مقبول و مطلوب ربما وطنياً. و لكن ما ليس مقبولاً هو أن ينفرد كل مطران بسياسة خاصة و أحياناً خارجة عن صفته و عن مقامه و عن دوره). (٢)

الأرمـــن

ليس الأرمن بغرباء عن هذه المنطقة فهناك جماعات كثيرة استوطنت في المدن اللبنانية منذ احتلال الأرمن للبلاد قبيل الميلاد، ثم من جراء خدمة الأرمن في الجيوش البيزنطية في أنحاء سوريا و لبنان. على أن الهجرة الأرمنية الكثيفة كانت عام ١٩١٥ على أثر المذابح التي شهدتها الأراضي التركية مما اضطر الأرمن إلى الهجرة لسوريا الطبيعية.

و لعبت الكنيسة الأرمنية دوراً مهماً في الحياة الثقافية وتطوير العلوم اللاهوتية و العلمانية في صفوف أبناء شعبها. ففي أوائل القرن الخامس اخترع القديس و الناسك المشهور مسروب الحروف الأبجدية الأرمنية، و من ثم قام، بمساعدة الكاثوليكوس سهاك

١- صحيفة النهار- بيروت ٢٠٠١/٣/٢ ص ٢٢ الدكتور الأب يوسف مونس

٢- مجلة المسرة – حريصا تشرين الثاني السنة ١٩٩١/٧٧ ص ١٠٥٢ د. داود الصايغ

وتلاميذه، بترجمة الكتاب المقدس إلى هذه اللغة عام ٤٣٦. و بعد ترجمة الكتاب المقدس، قام آباء الكنيسة الأرمنية بترجمة أعمال مشاهير آباء الكنيسة اليونانية و السريانية و اللاتينية. (١)

و تمكن الأرمن في الإمبراطورية البيزنطية من الوصول إلى مراتب إدارية عالية، و حتى إلى منصب الإمبراطورية نفسها أكثر من مرة. ففي عهد الإمبراطورية البيزنطية أعتلى عرش هذه الدولة أكثر من ٢٠ إمبراطوراً أرمنياً حكموا الإمبراطورية البيزنطية: موريقوس (٥٨٣-٦٠٢)، هيرقل (٦١٠-٦٤١) ، فيليبكيوس (٧١١-٧١٣)، لاون الخامس (٨١٣-٨٢٠)، باسيل الأول (٨٦٦-٨٨٦) و لاون السادس الفيلسوف (٨٩٠-٩١١) الكسندر باسيل الأول (٩١١-٩١٢) قسطنطين السابع (٩١٣-٩٥٩)، رومانوس الأول (٩١٨-٩٤٤)، رومانوس الثاني (٩٥٩-٩٦٣)، يوحنا (٩٦٩-٩٧٦)، باسيل الثاني (٩٧٦-١٠٢٥)، قسطنطين التاسع (٩٧٦-١٠٢٨). و هناك إمبراطورات أرمنيات حكمن بيزنطة: مارينا (٧٨٨-٧٩٥)، ثيودسيا (٨١٣-٨٢٠)، أفروسسني (٨٢٣-٨٣٠)، ثيودورة الأولى (٨٣٠-٨٧٦) زوجة الملك ثيوفيلوس، (٨٢٩-٨٤٢) الأرمني البيزنطي، هيلانة (٩١٩-٩٦١)، ثيودورة الثانية (٩٧١-٩٧٦)، ثيودورة الثالثة (١٠٤٢-١٠٥٦)، ريتا (١٢٩٦-١٣٣٢). كما أنه وجد ١٥ قائداً أرمنياً في جيش الإمبراطور يوستينيانوس وحده. و قد أضحى عدد كبير من الأرمن قادة في جيوش بيزنطة. (٢)

و قد لعب الأرمن دوراً نهوضياً في البلاد السورية و عرفوا باتقانهم للصناعات التي عملوا بها، و اشتهروا بصدقهم أثناء تعاملهم مع الغير، مع محافظتهم على تراثهم.

كما أن الكنيسة الأرمنية انقسمت إلى ثلاث كنائس: أرثوذكسية و كاثوليكية و إنجيلية يجمعها الانتماء القومي لوطنها الأصلي.

و لم تتدخل الأحزاب الأرمنية في الصراعات التي عصفت في- لبنان- مثلاً، فقد وقفت على الحياد دون أن تتجر لهذا الفريق أو ذاك، و لها تمثيلها في البرلمان اللبناني مرة بأربعة نواب و مرة بخمسة، كما لها وزير في معظم الحكومات اللبنانية حين تكون قاعدة مجلس الوزراء عريضة تستوعب كل الطوائف.

١- مجموعة مؤلفين: الكنائس المسيحية في لبنان مرجع سابق ص ٥٥

٢- الأب متري هاجي اثناسيو:سورية المسيحية في الالف الاول الميلادي الجزء الثاني مكتبة نوبل- دمشق ١٩٩٧ ص ٧٩

الـروم الأرثوذكس

كنيسة الروم الأرثوذكس هي من أكبر الطوائف المسيحية في الجمهورية العربية السورية، و ثاني طائفة بعدد النفوس بين مسيحيي لبنان، لها تراثها الديني و الفكري المجيد. انشطرت عنها الكنيسة الملكية الكاثوليكية عام ١٧٤٢ مما أضعف من شموليتها العددية.

و جاء في نظام التشريفات المتعلق برؤساء الطوائف الروحيين في العهد العثماني أن مقام رئيس الروم الأرثوذكس في كل بلدة يأتي بعد المفتي، و يراعى باقي الطوائف قاعدة الأقدم فالأقدم. و قد جاء في موجبات تقديم الرئيس الأرثوذكسي أن ملة الروم عريقة في قدمها و مكانتها في البلاد. (١)

و لا شك أن الكرسي القسطنطيني تدخل خلال العهد العثماني (١٥١٦- ١٩١٨) في شؤون الكنيسة الملكية، و فرض عليها بطاركة و مطارنة من بلاد الإغريق، غير أن ذلك كان تجاوزا لحقوق الكنيسة الملكية. و هذا ما يسعى لإثباته المؤرخون الملكيون الأرثوذكس و الكاثوليك و في مقدمتهم غبطة البطريرك أغناطيوس هزيم الذي يعتبر البطريركية القسطنطينية غربية. (٢)

يقول المطران جورج خضر عن الروم الأرثوذكس: إننا لم نتبن العبادات البيزنطية إلا بسبب تهجير بطاركتنا و أساقفتنا إلى القسطنطينية منذ القرن السابع، ثم هذا نتيجة الاجتياح الفرنجي لهذه البلاد في العهد الصليبي. كنيسة لا تعي نفسها لاجئة اضطرت إلى الاغتراب و عادت قيادتها من بعد غربة متجذرة في التراث البيزنطي الذي كان وليد أنطاكية و لكن لساننا قبل أن يعرب بقي سريانيا حتى القرن السابع عشر في بعض منْ الأماكن. و ترجمنا إليها الليتورجية البيزنطية كما أخذنا نمارسها عربية منذ ثمانية قرون. (٣)

و لم يكن من السهولة تعريب الكنيسة الأرثوذكسية، فقد كانت هناك معارك في

١- يوسف الحكيم : سورية و العهد العثماني دار النهار – بيروت ١٩٨٠ ص ٤٧

٢- مجلة المسرة – حريصا ت ٢ – ك١ السنة ١٩٨٥/٧١ ص ٧٠٠

٣- مجموعة مؤلفين : الكنائس المسيحية في لبنان مرجع سابق ص ٤٦

سبيل ذلك ذكر تفاصيلها الخوري ميخائيل بريك الدمشقي حيث يقول:

حين انتخب البطريرك سبريدوخوس عام ١٨٩١ قامت قيامة الشعب عليه قومة واحدة فاضطر أن يستقيل أو يعتزل في ٣١ كانون الثاني سنة ١٨٩٩. ثم قامت فتنة شديدة بين بطاركة و مطارنة الأروام و اتباعهم و بين المطارنة الأنطاكيين العرب على حق انتخاب للبطريركية الأنطاكية. و بعد مشاحنات و فتن شديدة طويلة فاز الفريق الثاني بفضل اتحادهم و اتفاق كلمتهم و معاضدة الشعب لهم و بفضل حماية دولة روسيا لهم مع الحكومة العثمانية، فانتخبوا في ١٥ نيسان سنة ١٨٩٩ بطريركا مطران اللاذقية المرحوم ملاتيوس دوماني و في ٢٣ تشرين الأول صدرت الإرادة السلطانية بإثبات انتخابه لكنه مات سنة ١٩٠٦ و لم يعترف أحد من بطاركة الأروام و مطارنتهم ببطركيته.

ثم انتخب خلفا له الطيب الذكر غريغوريوس حداد بطريركا في ٢١ آب سنة ١٩٠٦ و أثبت انتخابه و لم يعترفوا ببطريركيته إلا في سنة ١٩٠٩ إذ أرسلوا إليه حينئذ رسائل التهنئة القانونية ا لمدعوة رسائل السلام إذ كانوا يعتبرون البطريركية الأنطاكية في مدة هذه السنوات العشر كأنها في شقاق ديني بسبب رفع أكف أيديهم بأمر ترشيح و انتخاب البطاركة الأنطاكيين من اكليروسهم على ما جرت العادة بذلك منذ انتخاب سلفسترس و يريدون الاستمرار عليه بدون انقطاع.

و يضيف الخوري بريك: و لكن لا يسع المؤرخ المنصف في حكمه إلا أن يقول بحق البطاركة الأروام الأنطاكيين المذكورين بقطع النظر عن الظلم الفاحش الذي كانوا يسعون بإنزاله في الروم الكاثوليك. إنهم كانوا العامل الأول دائما بقوة الفرامانات السلطانية التي كان يسلحهم بها بطاركة القسطنطينية للاستيلاء على البطريركية الأنطاكية و كراسي مطارنتها و كنائسها و أوقافها و استقلالهم بالتصرف فيها دون مشاركة إخوانهم الروم الكاثوليك في شيء من ذلك. و قصارى الكلام يصح أن يقال إنه لولاهم لكان اليوم جميع أبناء الأبرشية الأنطاكية و جميع أبرشيات مطارنتها يؤلفون طائفة واحدة نشيطة قوية يقال لها طائفة الروم الكاثوليك الأرثوذكس يرتبط كل أفرادها و إكليروسها بوحدة الإيمان الكاثوليكي و الطقس اليوناني الشريف و بوحدة الوطن الشرقي و بالمصلحة العامة. (١)

١- الخوري ميخائيل بريك الدمشقي : تاريخ الشام ١٧٢٠-١٧٨٢ تحقيق وتقديم احمد غسان سبانو دار قتيبة - دمشق ١٩٨٢ ص ٨٧-٨٨

و لا زالت كنيسة الروم الأرثوذكس في سوريا لها بطريركيين في هذه المنطقة، الأول عربي في دمشق و الثاني يوناني في القدس. و مع كل الوسائل التي قامت لتعريب الكنيسة في القدس لم تنجح المساعي بعد.

و قد سماها الأب جان كوربون سنة ١٩٧٧ (كنيسة العرب) (١) منطلقا من أن وجه هذه الكنيسة قد يكون محجوبا عن أنظار أخواتها الكنائس الأخرى في الغرب، حتى في الشرق ذاته، و عن أعين أخواتها الأقربين و هم العرب و المسلمون الذي تعيش الكنيسة بين ظهرانيهم. و لا يمكن لوجه كنيسة العرب أن يتجلى إلا إذا أزحنا عنه الغشاء الذي يغطي مميزاته الخاصة، و هذا الغشاء كما يبدو لعين القارئ الأجنبي هو أولا تلك التسمية المتداولة (كنيسة الشرق) و التي تسهم في تغذية الالتباس و الغموض.

و كنيسة العرب، في حال إقرار وجودها، تبقى بدون حدود دقيقة، غارقة في ضباب المفهوم المجرد العام و نعني به الشرق المسيحي. و الواقع أنه ليس هناك من شرق مسيحي و لا يجوز بالتالي تغذية الشعور بأن هناك وحدة متماسكة تدعي بهذا الاسم.

أخيرا، أليس عن طريق الصدفة أن يكون مؤسسو أكبر الأحزاب الإيديولوجية الثلاثة في العالم العربي من الروم الأرثوذكس: حزب البعث العربي الاشتراكي مؤسسه ميشيل عفلق، الحزب القومي السوري الاجتماعي مؤسسه أنطون سعاده، و معظم الأحزاب الشيوعية الوطنية، خصوصا في لبنان و فلسطين المحتلة يعتبر مؤسسوها من الروم الأرثوذكس، الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين مؤسسها جورج حبش، الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين مؤسسها نايف حواتمة ، حركة القوميين العرب مؤسسها الدكتور قسطنطين زريق و غيرها من الأسماء اللامعة في العالم العربي. و هذه الأحزاب و الحركات تبغي الوصول إلى تحرير الأرض و الوصول إلى مساواة أساسية بين المواطنين العرب بقطع النظر عن أصلهم الديني.

الروم الكاثوليك

إن الكنيسة الملكية (الروم الكاثوليك) المتحدة بالكرسي الروماني لها رسالة متميزة و هوية خاصة، فرغم اتحادها بالكاثوليكية اللاتينية، حريصة على أن تبقى شرقية

١- الأب جان كوربون : كنيسة المشرق العربي ص ٨٥ مرجع سابق

أصلا و عقلية و تحمسا. و قد سعت لأن تكون أمينة للتراث الأنطاكي الملكي ولجذوره الرسولية. و من المعروف أن إحدى قوائم هذا التراث هو حرص الكنيسة الملكية، عبر تاريخها، على أن تضمن الشركة الكنسية مع الكرسي الرسولي الروماني. و بهذا تكون قد حافظت على ما يميزها عبر التاريخ في نظر المنتمين إليها و في نظر محاوريها من مسيحيين و مسلمين.

و لا تفوت فرصة مسؤولي الكنيسة من رجال دين و علمانيين من التأكيد على انتمائهم العربي، حريصين على أن ارتباطهم مع روما هو ارتباط شراكة. و قد كان لهذا الانفتاح أن طعم الفكر المحلي بإنجازات الغرب العلمية و هو ما عكس تركيز الهيئات الدينية على فتح المدارس المميزة التي خرجت خيرة رجال العلم و الثقافة في هذه المنطقة، و كانت النكسة يوم أممت في سوريا في ستينات القرن العشرين.

و ينقل المطران ثم (البطريرك) لطفي لحام من محاضرة للبطريرك مكسيموس الرابع رأيه بأزمة كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك حيث يقول:

١ ـ بعض أسباب أزمتنا يتأتى من موقف إخواننا اللاتين : الجهل، عدم الثقة، الحذر، سوء الفهم، ندمهم أنهم قبلونا في شركتهم مع بقائنا شرقيين، و هم يعلمون، متجاهلين وجودنا.

٢ـ بعض أسباب الأزمة تكمن في موقف إخواننا الأرثوذكس منا: الجهل بنا، بتاريخنا، و تزويره: فنحن جواسيس و عملاء و ذئاب و أداة غير واعية للتسلط الغربي على الشرق. إن الأرثوذكس مجروحون، ثائرون ضد تسرعنا في إقامة الشركة مع الغرب دون التحسب لكل مغباتها.

٣ـ المستشرقون و أرباب الحركة المسكونية في الغرب يقفون ضد (وحدتنا) و يعتبرونها (أونيا) * و هم يعتبروننا أمثلة غير صالحة للوحدة الحقيقية. إن شركتنا مع روما إخفاق. (١)

و نقلا عن المطران إدلبي ينقل مرة ثانية المطران لحام موجز انفتاح الكنيسة الملكية (رومية أرثوذكسية و كاثوليكية): (إن الأرثوذكسية في أرض الإسلام، لم

---

* تعني (أونيا) خضوعا جزئيا أو كليا.

١ـ مجلة المسرة ـ حريصا تشرين الثاني السنة ١٩٩١/٧٧ المطران لطفي لحام ص ٩٣٤ مرجع سابق

تنجر أبدا وراء النزاع الهليني مع روما. إن الانشقاق المدعو ((الشرقي)) لم يكن في الواقع إلا شقاقا بيزنطيا، يونانيا هلينيا. و لم يدخل بلادنا إلا من خلال رجال الإكليروس الكبار، و هم في أغلبيتهم يونان أو من أصل يوناني، و على كل حال تحت هيمنة القسطنطينية. أما الشعب فقد بقي أمينا على أرثوذكسيته الكاثوليكية (جامعا بين الاثنين ببساطة). لقد انفصمت علاقاته مع روما ردحا من الزمن لأسباب سياسية، و ما عتمت أن عادت هذه العلاقات، على أثر قدوم المرسلين الغربيين إلى البلاد. إن الانشقاق في الشرق العربي جسم غريب. و هذا ما نراه بطريقة أجلى في تاريخ باقي الكنائس الشرقية). (١)

و لم يصل الحال مع رجال الدين الروم الكاثوليك إلى التدخل في الشؤون السياسية في الأماكن المتواجدين بها، رغم وزنهم الكبير في المجتمع، و يعبر أحد أبناء هذه الطائفة عن هذا الرأي بالقول:

إن الروم الكاثوليك هم بارعون في إيجاد الحلول لأنهم يعتبرون أنفسهم لحمة مع الآخرين. فهم عرفوا هؤلاء الآخرين و احترموهم و أحبوهم ، و عاشوا معهم في كل المناطق، و مع أبناء سائر الطوائف دون استثناء. و بذلك اكتسبوا تلك الصفة البالغة الأهمية في هذه البلاد وهي صفة الاعتدال التي لا تعني الضعف و لا المساومة و لا التخلف عن اتخاذ المواقف. فالروم الملكيون الكاثوليك معتدلون. وهم أعلنوا هذه الصفة حتى عندما لم تكن لها مجال في لبنان، ودفعوا الثمن غاليا، قبل أن يعود الآخرون و يهتدوا إلى الاعتدال و يبنوا عليه من جديد صيغة العيش المشترك. (٢)

الإنجيليون

ساهم الفكر البروتستانتي أو الإنجيلي بالإجمال في إزكاء شعلة (النهضة) و في تكوين الفكر الإنساني المعاصر بحيث لا يتأمل اليوم، لاهوتي،و لا يتعلم متعلم، و لا يتثقف مثقف دون أن يمر بالفكر البروتستانتي.

١- مجلة المسرة – حريصا تشرين الثاني السنة ١٩٩١/٧٧ المطران لطفي لحام ص ٩٣٥ مرجع سابق
٢- مجلة المسرة – حريصا السنة ١٩٩١/٧٧ ص ١٠٤٩ د. داود صايغ مرجع سابق

و في الربع الأول من القرن التاسع عشر جاء المرسلون الإنجيليون إلى الشرق حاملين رسالتهم الروحية و فكرهم الثقافي و التربوي. و لم يلجأوا أبدا إلى (تغريب) الإنسان الشرقي بل (شرقوا) رسالتهم و تربيتهم فترجموا الكتاب المقدس إلى العربية و كتبوا الترانيم بالعربية و وعظوا و علموا و فتحوا المدارس و درسوا فيها العلوم العربية و العادات و التقاليد الشرقية. و كانت النتيجة أن عددا من الشرقيين قبلوا رسالتهم فتأسست (الكنيسة الإنجيلية الوطنية) عام ١٨٤٨ من الوطنيين الذين تسلموا المشعل و ساهموا في إنماء المدارس و الجامعات الإنجيلية المؤسسة في عصر كانت الثقافة نائمة في هذه البلاد. (١)

و الإنجيليون في سوريا هم أصلا من الكنائس المشرقية، من الأرمن و الروم و السريان و الأقباط ، انتقلوا من طائفة إلى أخرى في إطار كنيسة المسيح الواحدة في تمايز طوائفها و إيجابيات هذا التمايز.

و قد سعوا إلى تأسيس مجلس الكنائس العالمي عام ١٩٤٨ الذي يضم في الوقت الحاضر كل الكنائس الشرقية ما عدا الكنيسة الآشورية الشرقية و هي في طور الانضمام.

و لكن الكنيسة الإنجيلية لم يرحب بها من الأرثوذكس و الكاثوليك في هذه المنطقة، وعدت الباب الذي خرج منه اتباعهما إلى كنيسة أخرى مستحدثة. و يظهر ذلك من أنه حين عقد المؤتمر العاشر لمجلس البطاركة الكاثوليك المنعقد في بكركي يوم ٢٠ و ٢١ /٢٠٠٠/١١ لم توجه الدعوة إلى هذه الطائفة، مع أن المؤتمر استقبل يومه الأول البطاركة الأرثوذكس الخلقيدونيين و غير الخلقيدونيين و اصدروا بيانا مشتركا حددوا فيه بعض القضايا البارزة في المنطقة.

إذا عدنا إلى الوراء نرى عوامل عدة لعبت دورها في القبول بالبروتستانتية لدى أبناء سوريا و لبنان فهم من أصل عربي، و كان معظم من لم يكونوا منهم من أصل عربي قد اقتبسوا اللغة العربية و اقتبسوا معها ثقافة بأسرها. فكانت هذه الثقافة تخصهم بمعنى من المعاني كما كانت لا تخصهم بمعنى آخر، إذ كانت ثقافة إسلامية بمقدار ما كانت عربية.

و قد أثارت هذه التغيرات أسئلة لدى المسيحيين الناطقين بالضاد. أولها كيف الإفلات من قفص طوائفهم الدينية المغلقة التي كانت بفضل تربيتهم و اعتزازهم بلغتهم،

١- صحيفة النهار- بيروت ٢٠٠٠/١١/٢٨ ص ١٠ القس عيسى دياب

بوجود عالمين خارج الكنيسة: عالم الطائفة الدينية التي كانت سياجا لهم فأصبحت الآن كأنها حاجزا أمامهم، و ذلك لأسباب معينة خاصة بكل طائفة. ففي الطائفة المارونية، كان الأكليروس قد لعب دورا كبيرا في حوادث السنوات الحرجة بين ١٨٤٠ و ١٨٦٠، إن الصراع بين الفلاحين و المشايخ، أو في الصراع بين المسيحيين و الدروز. لكن دورهم هذا لم يحبذه جميع الناس، فنشأ توتر بين الأكليروس و الأهالي، كما نشأ توتر أيضا بين الطبقة العليا من الأكليروس و الطبقة الدنيا. (١)

و هكذا الحال مع الأرثوذكس مما ساعد على إنشاء الطائفة الإنجيلية في سوريا التي استقطبت هؤلاء المعارضين للإكليروس.

المسيحيون الآخرون

من الطوائف الكبيرة في سوريا طائفة السريان الكاثوليك التي تجددت الدماء فيها فأنتخب بطريرك جديد لها، ما لبث أن عين رئيس القسم الشرقي في الفاتيكان و عين بطريرك آخر.

و يعود للسريان الكاثوليك حرصهم على التراث السرياني و نبوغ رجال دين عملوا على صيانته.

يأمل الكثير من السريان الخلص أن يكون الحوار السرياني- السرياني متجاوزا الأرثوذكسية و الكاثوليكية.

أما الكلدان فعددهم في سوريا قليل، و يرتقي تاريخ الكنيسة الكلدانية في لبنان إلى أواخر القران التاسع عشر حين لجأ إلى هذا البلد المضياف عدد غير قليل من العائلات الكلدانية يتقدمهم الخوري يوسف الطويل من ديار بكر و ذلك عام ١٨٩٥.

و بلغ عدد الكلدان في لبنان عام ١٩٨٦ عشرة آلاف نسمة، و يقارب هذا العدد عددهم في سوريا.

١- البرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة 1939- 1798 ترجمة كريم عزقول دار النهار- بيروت ١٩٧٧ ص ١٢٣

و هناك الطائفة الآشورية و هي منتشرة في منطقة الجزيرة السورية و يتناقص عددها باستمرار بفعل الهجرة و الانقسامات الكهنوتية التي تعصف بها.

أما اللاتين فإنهم من الأقليات المسيحية في سوريا، و قد خفت موجة الليتنة التي قامت بتحول أفراد من الطوائف المسيحية إلى كنيسة اللاتين. و بلغ عددهم في لبنان عام ١٩٨٦ (١٤) ألف نسمة.

ليس لنا بعد ما عرضناه أن نبحث عن أي طائفة هي الشرعية أو الوريثة الحقيقية للكنيسة الأنطاكية الأولى، و لا مجال لأن نتساءل أي طائفة انشقت عن الأخرى. فمثل هذا البحث يقود إلى تشعبات قانونية و تاريخية و لم يعد له من جدوى نظرا إلى مرور الزمن، و في آخر الأمر ترتكز الشرعية على حقيقة الإيمان.

و تبقى سوريا هي مهد المسيحية. ففي القدس مات المسيح و قام المسيح، و من القدس انطلقت الكنيسة يوم العنصرة، و قرب دمشق اهتدى بولس و أخذ دعوته من السماء ليكون رسولا لأمم، و في أنطاكية دعي التلاميذ أولا مسيحيين و منها انطلقت الدعوة المسيحية إلى بلاد الأناضول و اليونان، و كانت الرها مع الأباجرة أول إمارة تنصرت و أصبحت مركزا هاما للإشعاع المسيحي شرقي بلاد الشام. و كانت سوريا نقطة التماس بين العالم المسيحي و العرب، و كانت ملتقى الحضارات و الشعوب و بوتقة انصهرت فيها العقلية السامية و العقلية اليونانية، و لقيت فيها المسيحية تربة صالحة لازدهار الطقوس الكنسية و العلوم اللاهوتية، و ازدانت بروائع الفن المعماري و لمع فيها نخبة من الرجال العظام امتازوا بعلمهم و ثقافتهم. (١)

١- مجلة المسرة – حريصا ك٢ – شباط ١٩٨١ السنة ٦٧ الخوري اغناطيوس ديك ص٣٨

الدور السياسي لمسيحيي سوريا

يضم الكيان السياسي، في أرقى وحدة له المجتمع المحلي القومي و كل المجتمعات المحلية للأمة، كما يضم كذلك المجموعات القائمة على الأسرة و التي تكون حقوقها الأساسية و حرياتها متقدمة عليه نفسه. كذلك يضم عددا من المجتمعات الخاصة الأخرى التي تنشأ من المبادأة الحرة للمواطنين، و هذه المجتمعات يجب أن تتمتع بأكبر قدر ممكن من الاستقلال الذاتي. ذلك هو عنصر مذهب (الكثرة) الملازم لكل مجتمع سياسي صحيح. و الحياة العائلية و الاقتصادية و الثقافية و التعليمية و الدينية لها من الأهمية بالنسبة إلى وجود الكيان السياسي و ازدهاره بقدر ما للحياة السياسية. و كل القوانين، و الأنظمة التلقائية غير المكتوبة للجماعة إلى العادات، إلى القانون بكل معنى الكلمة، تسهم في النظام الحيوي للكيان السياسي من السلطات الخاصة و الفرعية لترتفع على شكل طبقات الواحدة منها فوق الأخرى حتى تصل إلى السلطة العليا في الدولة. و في النهاية يكون الصالح العام و النظام العام للقانون هما الجزآن الجوهريان للمصلحة العامة للكيان السياسي.

و من زاوية المصلحة العامة السياسية فإن فعاليات المواطنين، باعتبارهم أعضاء في طائفة، ذات تأثير على المصلحة العامة. و هم و المؤسسات التي يساندونها جزء من المجتمع السياسي و المجتمع القومي، و من هذه الوجهة و بهذه الطريقة يمكن أن يقال إن الطائفة في داخل الكيان السياسي. و لكن هذه النظرة تظل متميزة و ناقصة. فإن الطائفة إذ تكون في داخل الكيان السياسي- و في كل كيان سياسي – عن طريق أعضائها و مؤسساتها فإنها، أو الطائفة في جوهرها، ليست جزءا بل كلا، فهي مملكة جامعة بصورة مطلقة تشمل العالم كله- و هي (فوق) الكيان السياسي و كل كيان سياسي . (١)

إن مملكة الله روحانية في جوهرها، و بحكم كون نظامها ليس من هذا العالم فإنها لا يمكن أن تهدد بحال من الأحوال، ممالك هذا العالم و جمهورياته. و بمحض كونها

١- جاك مارتيان : الفرد و الدولة ترجمة د. صالح الشماع منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت ص ١٧٢

روحانية فإنها أرفع و أسمى طبيعة من ممالك هذه الأرض و جمهورياتها و هنا لا بد لنا من أن نبعد عن كلمة (أرفع) ما يكتنفها من مدلولات السيطرة و الزعامة، و لنفهمها بمدلولها الدقيق. إنها تعني منزلة أعلى في ميزان القيم أو أكثر جلالا. فالمبدأ العام الثاني الذي يجب تقريره فيما يتعلق بالمسائل التي نحن بصددها هو (كون الكنيسة- أي الروحانية- أرفع من الكيان السياسي أو الدولة). (١)

إن الطائفة و الكيان السياسي، مهما تكن شقة الاختلاف بينهما، لا يستطيعان العيش أو النمو بمعزل عن بعضهما و في جهل الواحد للآخر منهما. مثل هذه الحال لا تعدو أن تكون غير طبيعية. و بمجرد كون الفرد عضوا، في وقت واحد، في المجتمع الذي هو الطائفة و المجتمع الذي هو الكيان السياسي، فإن وضع خط فاصل بين الاثنين بصورة مطلقة إنما يعني حرفيا أن الفرد يجب أن يقطع قطعتين. و هكذا فإن المبدأ العام الثالث الذي يجب تقريره فيما يتعلق بالمسائل التي نحن بصددها هو التعاون الضروري فيما بين الطائفة و الكيان السياسي.

وضع المسيحيين من السلطة

استعمرت سوريا منذ القرن الثالث قبل الميلاد و إلى القرن السابع الميلادي، ثم جاء العرب المسلمون فاتحين لها، و من خلال حكمهم تنوعت هوية الحكام، فالخلفاء الأمويون حولوا الجمهورية الدينية العربية إلى إمبراطورية حقيقية شبيهة بتلك التي كانت تحكم بها زنوبيا من قبل، و ذلك بفضل تحررهم الفكري و ضعف عصبيتهم الدينية. فضربوا الدنانير الذهبية على نسق الدراهم البيزنطية و أسندوا إلى منصور بن سرجون مركز الوزير الأول حيث تولى إدارة بيت المال و هو منصب يعادل وزير المالية اليوم، إلى أن جاء دور العثمانيين فحكموا إلى عام ١٩١٨.

و من خلال ألفي عام لم يستلم المسيحيون مقاليد الحكم و لو ليوم واحد، و لهذا فإن دورهم السياسي لم يكن ذا وزن من خلال ما مر على هذه البلاد، بل إن دورهم الثقافي

١- جان مارتيان : الفرد و الدولة مرجع سابق ص ١٧٣

و العلمي بقي طوال هذا الزمن، و أبرز عناصر هذه المساهمة نقل المعارف و تقديم الخدمات الفنية لمؤسسات الدولة. لكن ذلك لا ينفي عنصرا أهم بنظر البعض، و هو المشاركة في الحركة الفكرية التي قامت عليها المؤسسات و النظم.

في نهاية القرن الأول الهجري كان المسلمون أقلية، ما لبث عددهم في نهاية القرن الثالث أن أصبح أكثرية، و من خلال ذلك كان المسيحيون أقلية، بمعنى الهامشية السياسية قبل أن يعرفوا تغيرات ملحوظة في أعدادهم، و كونهم أقلية اكتسب وضعهم معنى نوعيا قبل أن يصبح ذا دلالة كمية.

و منذ القرن الثاني عشر للميلاد أخذ البعض من مسيحيي هذه المنطقة في البحث عن الدعم الخارجي، و كان الموارنة السباقين في ذلك. و تذكر التقاليد المارونية أن الملك لويس التاسع وجه أثناء وجوده في عكا سنة ١٢٥٠ رسالة إلى بطريرك الموارنة يذكر فيها أن فرنسا تعتبر الموارنة قسما من الأمة الفرنسية، و ينهي الملك رسالته بالنص التالي (أما نحن و كل الذين يخلفوننا على عرش فرنسا فنتعهد بان نوليكم أنتم و شعبكم نفس الحماية التي للفرنساويين أنفسهم و بأن نعمل على الدوام كل ما هو ضروري لسعادتكم). (١) و مع ذلك لم يحل هذا الأمر دون مساهمتهم في البناء المعرفي لهذه المنطقة. و الإنجازات الفكرية و الفنية للحضارة الإسلامية مدينة للمسيحيين الشرقيين بالتجاوب مع شغف المسلمين للمعرفة في سعيهم للرد على تحديات التقدم.

و عقب ذلك انحسار لهذا الدور لمجرد أن المهمة التي تصدى لها أنجزت، فعاد المسيحيون، إلى حد ما، على هامش مجتمع إسلامي متماسك، و عرفوا انكفاء على الذات. فبعد المرحلة التكوينية في الحضارة الإسلامية ضعفت إمكاناتهم البشرية و المادية. (٢)

و طور العثمانيون نظام (الملل) المملوكي بإعطاء القيادات الروحية المسيحية و اليهودية سلطة في إدارة شؤون الرعايا الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية. و تنامى استقلال الطوائف بتوالي صدور امتيازات (الحماية) لمختلف الدول الأوربية . و لا خلاف في أن السياسات الدينية للعثمانيين وفرت حريات واسعة لغير المسلمين، و يسرت تفاعل

١- محمد علي مكي: لبنان ٦٣٥ -١٥١٦ دار النهار – بيروت ص ٢٠٧

2- Robert Haddad: Syrian Christians in Muslim Society. Princeton University Press، Princeton 1970 P.P 4-5

السلطنة مع شعوب متعددة الأصول و الأديان و المذاهب، و أن التعصب و النزاعات الطائفية كانت من آثار الاختراقات الأوربية بدرجة رئيسة. (١) و عوملت الملل ككيانات اجتماعية تتمتع بدرجة من الاستقلالية في شؤونها الداخلية.

و مع تقهقر نفوذ الدولة العثمانية الذي رافق التأثير الثقافي للقوى الأوربية في القرن التاسع عشر، دخلت العالم الإسلامي بشكل تدريجي، أيديولوجيات و أنماط من البنى الاجتماعية و السياسية الفاعلة في دول أوربا. و من جهة أخرى، استفادت الدول الأوربية من ضعف العثمانيين و اعتمدت سياسة الضغوط و التدخلات جاعلة الأقليات، هنا و ثمة، أدوات لتحقيق مآربها. و لم يتردد عدد من زعماء هذه الأقليات في قبول ما بدا لهم دعما للحصول على حقوقهم في المساواة و الحرية. و وجد عدد من المسيحيين أنفسهم في مواجهة خيارات صعبة فيما حاولوا التدقيق بين ولائهم للدولة و نزعتهم للتحرر. و في مرحلة لاحقة، استطاعوا المواءمة بين النضال من أجل المساواة المدنية و السياسية و المشاركة مع المسلمين العرب في السعي إلى الاستقلال الوطني. و بالنسبة إلى عدد غير قليل من المسيحيين استمر هذا النضال، بعد انهيار الدولة العثمانية، فتصدى لهيمنة الدول الأوربية المتنافسة على اقتسام غنيمة الحرب العالمية الأولى. و وجد هؤلاء المسيحيون العرب أنفسهم في موقع المشاركة في تأسيس كيانات وطنية مستقلة، و في تشكيل أنظمة اجتماعية – سياسية جديدة. كما لعبوا دورا و مارسوا تأثيرا يتجاوز ما تسمح به نسبتهم العددية أو مواقفهم الاجتماعية – الاقتصادية. (٢)

في العهد العثماني

كان النظام السياسي العثماني مرتبطا بالنظام الإقطاعي القائم في الإمبراطورية العثمانية، و اتساع رقعة هذه الإمبراطورية. لذلك، كان الحكم استبداديا فرديا و عسكريا،

١- د. جورج قرم : تعدد الأديان و أنظمة الحكم ، دراسة سوسيولوجية و قانونية مقارنة دار النهار للنشر- بيروت ١٩٧٩ ص ٢٤١-٢٧٥

٢- مجلة المسرة – حريصا تشرين الثاني السنة ١٩٩١/٧٧ د. طارق متري: الكنيسة الشرقية و العالم العربي و الاسلامي

ليتسنى له القضاء على القوميات المختلفة التي ضمت بالغلبة إلى الإمبراطورية، و كانت أرقى من القومية التركية، و على الإقطاعيات المحلية و زعمائها التابعين دائما إلى الانفصال. و كان في رأس الحكم، السلطان العثماني الذي يمارس سلطاته على أساس (ملكية) وراثية مقدسة، تحولت منذ القرن السادس عشر إلى خلافة إسلامية، و لهذا أصبح السلطان العثماني خليفة للمسلمين، و زعيما روحيا للعالم الإسلامي. و كان السلطان يحكم حكما ملكيا مطلقا، يحصر بين يديه جميع السلطات العليا في الدولة. و كان يطلق على الحكومة المركزية لقب (الباب العالي) و يترأسها الصدر الأعظم، أو الوزير الأول، أو الوزير الأعظم. و كان يليه في الأهمية الروحية و النفوذ الاجتماعي و القضائي و التشريعي، شيخ الإسلام، الذي كانت تخضع له المؤسسات التشريعية الإسلامية، و المحاكم، و المدارس الملحقة بالمساجد، و أملاك الأوقاف، و القضاة الشرعيون العسكريون و المفتون. (١)

و في ظل الحكم العثماني تأثر سكان سوريا المسيحيون ببعض نواحي الفكر الأوربي. فمنذ القرن السادس عشر، كانت الكنيسة الكاثوليكية قد أقامت أولى علاقاتها النظامية بالطوائف المسيحية الشرقية. و كان المرسلون اليسوعيون و غيرهم يرسلون إلى الشرق الأدنى، لا لضم الكنائس المنشقة إلى الحظيرة الرومانية فحسب، بل لإصلاح العقيدة و النظام لدى الموارنة و أمثالهم من العناصر التي تعترف بسلطة روما. و قد عقد الموارنة اتفاقية كنيسة (كونكودا) مع روما عام ١٧٣٦. و منذ ذلك الحين أقيمت معهم علاقات نظامية، كانت تضمن لهم سلطتهم الكهنوتية و طقوسهم و حقهم الكنسي و عاداتهم، كما كانت تحافظ على استقامتهم العقائدية و اعترافهم بسلطة البابا. و كان نتيجة عمل الإرساليات أن نشأت، تدريجيا طوائف متحدة مع روما داخل الكنائس الشرقية الأخرى، كالأرثوذكسية الأرمنية و القبطية و السريانية الأرثوذكسية و النسطورية . و قد برزت هذه الطوائف، بعد صراع على السلطة في البطريركيات و المطرانيات في أوائل القرن الثامن عشر، كنائس مستقلة عمليا، يرأس كلا منها بطريرك، مع أنها لم تحصل على اعتراف مدني من الحكومة العثمانية حتى القرن التاسع عشر.

و بفضل الإرساليات و حماية فرنسا، نشأت شبكة من المدارس الكاثوليكية في كل مكان تقطنه طوائف كاثوليكية أو قابلة لأن تصبح كاثوليكية، و بنوع خاص في لبنان و حلب.

١ـ د. منير موسى : الفكر العربي في العصر الحديث دار الحقيقة ـ بيروت ١٩٧٣ ص ٢١

و في قلب الكنيسة الكاثوليكية في روما تأسس عدد من المعاهد لتنشئة إكليروس كاثوليكي مثقف و مستقيم العقيدة، كالمعهد الماروني و المعهد اليوناني و معهد جمعية نشر الإيمان. (١)

هذه المعاهد و غيرها نهضت بالمسيحيين علميا و ثقافيا وسياسيا بشكل كبير، و هو ما جعل من بعضها تزداد ثروة و ثقافة و نفوذا طوال القرن الثامن عشر. فالحماية الأجنبية لم تمنحها امتيازات سياسية فحسب، بل وفرت لأبنائها أيضا، و هم عملاء التجارة مع أوربا في ذلك الحين، منافع تجارية مالية. و قد اغتنى بنوع خاص اليونانيون و الأرمن و المسيحيون السوريون الناطقين بالضاد، فارتفع مع هذا الغنى مستواهم الثقافي و اشتد شعورهم الطائفي و قد تجلى ذلك، في الأكثر، لدى اليونانيين الذين كانت عظمة البيزنطيين لا تزال ماثلة في ذاكرتهم، فاستعادوا، بطريقة أخرى، تلك السلطة السياسية التي كان محمد، فاتح القسطنطينية قد جردهم منها. فكان بطريرك القسطنطينية اليوناني أبدا، الرئيس المدني أيضا (للأمة) الأرثوذكسية بكاملها. و قد توصل في القرن الثامن عشر إلى جمعها تحت سلطته، و ذلك بإخضاع البطريركيات أو بترئيس مرشحيه عليها. (٢)

و قد اعتمد إبراهيم باشا أثناء حكمه لسوريا الذي بدأ عام ١٨٣٣ على المسيحيين للأسباب التالية:

١- اعتمد عليهم في الإدارة، كما اعتاد في مصر لأن محمد علي كان يعتمد عليهم، إذ كان يرى أن المناصب الكبرى في الدولة يجب أن تكون إما من نصيب الأتراك أو المسيحيين، و لم يكن محمد علي ليسمح بأن ترسل رسالة إلى أي مكان إلا عن طريق كاتب تركي أو مسيحي. و كان محمد علي يرى أن من يتحدث التركية في مصر هو بطبيعة الأمر من طبقة راقية اجتماعيا (و هذا ما يفسر سر اعتماد اللغة التركية من قبل أبناء الطبقات الأرستقراطية في مصر للعصر المتأخر).

٢- قيام المسيحيين بالخدمة في حكومته بإخلاص بسبب جو الحرية و التسامح و المساواة الذي أعطاه للطوائف الدينية. إضافة إلى ذلك قيام إبراهيم باشا

١- البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1939 مرجع سابق ص ٧٧

٢- = = = = = = = = = = = = ص ٥٨-٥٩

بإلغاء الحظر المفروض على الطوائف غير المسلمة و التي أوجدها الأتراك مثل تحريم ركوب الدواب و اقتناء الجواري و لبس العمائم و سواها. علما بأن أول شخص غير مسلم لقب (بيك) كان لبحري بك الذي أنعم عليه به، نظرا لخدماته في حكومة محمد علي و إبراهيم باشا في سوريا.

جـ - قيام المسيحيين بتأييد دخول قوات إبراهيم باشا في سوريا و مساعدته ودعمه.

د- اعتماده على قوات عسكرية أجنبية مسيحية في جيشه و جعله بطبيعة الأمر يعتاد التعامل مع المسيحيين بسوريا.

هذه الأسباب كانت ممهدة للفتن و الحوادث التي أدت فيما بعد إلى حوادث ١٨٦٠، خصوصا أن الآغوات و المتنفذين الذين سائهم حكم إبراهيم باشا و إصلاحاته و محاولاته القضاء على نفوذهم، استغلوا هذه الناحية لضرب السلطة و الحكم. و قد ساعد أيضا إبراهيم باشا في تثبيت أقدامه في بلاد الشام دعوته لقيام دولة عربية موحدة. و كانت دعوته هذه صادقة تنبع من قلبه و وجدانه، عكس أبيه الذي يعتبر الحملة على سوريا مغامرة عابرة، و تفسير ذلك أن إبراهيم باشا كان يرد على ناقديه بدعوته هذه التي تأتي من حاكم غير عربي، بأنه ولد غير عربي لكنه عاش في مصر العربية، و قد حولت شمسها دمه إلى دم عربي. كان إبراهيم باشا يقتنع تماما بضرورة قيام دولة عربية موحدة تحمي الحرمين الشريفين، و قد كان لثقافته الشرقية أثر كبير في ذلك، إذ كان يتقن عدة لغات. كما أنه عاش في زمن يغاير من أبيه، لذلك لم يكن للأتراك و السلطان عنده أي أهمية أو هيبة أو ربط مع الخلافة الإسلامية، كما كانت عند أبيه. (١)

و لم تخل وزارة طوال عهد السلطان عبد الحميد من وزير أو وزيرين مسيحيين في مجلس الوكلاء، إحداهما رومي و الثاني أرمي، و لا ينكر اتصاف عدد كبير من الوزراء، و الولاة و القضاة في العهد الحميدي بمزايا العدل و ضمان المساواة بين جميع أفراد الرعية دون أي تأثر باختلاف العنصر و الدين. (٢)

١- مؤلف مجهول : مذكرات تاريخية عن حملة ابراهيم باشا في سوريه تحقيق أحمد غسان سباتو دار قتيبة - دمشق بدون تاريخ ص ١٨

٢- يوسف الحكيم: سورية و العهد العثماني دار النهار - بيروت ١٩٨٠ ص ٤١ مرجع سابق

و قد عامل مدحت باشا حين وضع حاكما لدمشق (١٧٨٧-١٨٨٠) المسيحيين معاملة جيدة، مبتعدا عن سياسة سابقه (جودت) التي صدمت أعماله (البستاني). و من ضمنها انتخاب مجلس بلدي في دمشق لم يتضمن أي مسيحي. و في ظل مدحت، أعيد انتخاب المجلس و وجد ثلاثة أعضاء غير مسلمين أماكن لهم بين أعضائه. و بالإضافة إلى تعيين قائمقام مسيحي، استخدم مدحت عددا من المسيحيين في الخدمة القضائية و عين مسيحيا على رأس المحكمة التجارية في طرابلس بدلا من مسلم. و لم يتردد أيضا في الشنق العلني في البازار لبعض المسلمين الذين قتلوا مسيحيين و قد تذكره معاصروه هذه السياسة طويلا. (١)

هذا الوضع الذي وصل إليه المسيحيون بعد أن برز من الطوائف المسيحية التي أنشأتها أو عززتها الإرساليات فريق من المثقفين، وعوا عالم أوربا الجديدة بل اعتبروا أنفسهم، بمعنى من المعاني جزءا منه.

و يمكن لنا تقدير مدى ما لعبته المدارس التي أنشأتها الطوائف المسيحية ابتداء من القرن التاسع عشر من خلال الأمية التي كانت مستشرية في تلك السنوات. و يذكر سليمان موسى أنه في القرن الثامن عشر كانت الدولة العثمانية هي الدولة الوحيدة بين دول أوربا الكبرى التي لم يكن فيها جامعة أو معاهد عليا لتدريس العلوم التطبيقية و لم تنشأ فيها دار طباعة حكومية إلا سنة ١٧٢٩. و قد استمرت هذه الدار حتى عام ١٧٥٦ ثم أغلقت ٢٨ عاما عادت بعدها للعمل، و لكنها لم تطبع حتى سنة ١٨٢٨ سوى ٩٨ كتابا و هذا من أوضح الأدلة على تخلف الإمبراطورية العثمانية و عدم مسايرتها للنهضة الأوربية . (٢)

المسيحيون و عصر النهضة

عاشت سوريا في ظل الحكم العثماني تحت شعار الجهل و التجهيل و فشل محاولات العرب الأولى، سواء كانت من قبل المصريين بقيادة إبراهيم باشا أو الوهابيين في

١- مجلة الاجتهاد – بيروت العددان ٤٥-٤٦ السنة الحادية العشرة شتاء و ربيع العام ٢٠٠٠ بطرس أبو منة : مدحت باشا في سوريه

٢- سليمان موسى : الحركة العربية ١٩٠٨ – ١٩٢٤ دار النهار – بيروت ص ١٥

إنشاء الدولة العربية و توحيد بلاد العرب. و إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر تعود بداية التفكير القومي حيث أخذ المثقفون العرب في سوريا يؤلفون الجمعيات الأدبية و السرية الداعية إلى الإصلاح.

و قد كان ا لسوريون إلى أواخر القرن التاسع عشر في محيط يختلف كل الاختلا ف عن المحيط الذي يعيشون فيه حاليا. فسياسيا كانوا خاضعين للسيادة التركية، وهي تختلف عن الاستعمار الحديث بحيث إنها كانت تشمل مصالح الأفاضول و تجار الأستانة بينما الاستعمار الفرنسي و الإنجليزي الذي مر على سوريا الكبرى كان يمثل أصحاب المصارف المالية و ما يتبعها من شركات صناعية و بيوتات احتكارية.

و اقتصاديا خضع السوريون إلى أنظمة تفوقت فيها طرق الاستثمار الإقطاعي الاستبدادي المطلق، فأخصب أراضيهم كانت بيد الحكام الأتراك، و مجموع هذه الأراضي كانت ملكا للسلطان يمنحها لمن يشاء و يحرمها من يشاء، فإن قام أحد الحكام الأتراك بعمل بارز يستحق المكافأة منحه الوالي مساحة ما من الأراضي مع فلاحيها، فجاء أولاده و (طوبوها)على اسمهم. و هكذا بقيت في حوزتهم و أصبحت في ما بعد ملكا لهم.

لم يكن العثمانيون أكثر رقيا و حضارة من سكان البلاد العربية. و قد ظلوا طوال أربعة قرون يحكمون بأسلوب عسكري اتوقراطي، لا تشارك الشعوب فيه بأي قسط مهما كان ضئيلا. فهي تؤمر و عليها الطاعة و يفرض السلطان أو ممثل السلطان إرادته فيضطر الناس للرضوخ مكرهين. و من هنا فقد المواطن القدرة على الابتكار و لم يكن للإنسان الموهوب عبر تلك القرون مجال لتنمية مواهبه أو التعبير عنها في أي ميدان من ميادين النشاط الإنساني. و كان السلطان و حكام الولايات يتمتعون بسلطات مطلقة لا يحدها أي حد فيحكمون بالإعدام و يصادرون أموال الناس و يفرضون أية عقوبة يرونها حسب رغباتهم و أهوائهم. (١)

و كان الخوف في ظل هذا الحكم يقتل الأنا الأخلاقية و القانونية في داخل الفرد، حيث جوهر العلاقات الحاكمة لهذا العهد المستبد هو الاعتباطية المقيدة على حد تعبير (حنة ارندت)، و كل شيء كان ممكنا في ظل دولة جوهر نظامها الاستبدادي غياب القوانين، و لأنها اعتباطية غير منسرحة تتيح بعض الحرية و لو كانت فوضوية، فإن في دولة غياب

١ـ سليمان موسى : الحركة العربية مرجع سابق ص ١١٤

القوانين ليس كل شيء ممكنا فحسب بل أيضا يغدو كل شيء مستحيلا، و علاقة الممكن بالمستحيل تحددها درجة القرب أو البعد عن مركز القمع- الخوف.

هذا الوضع جعل من السوريين أنفسهم في حالة جمود و تأخر. فإذا كانت تركيا نفسها تنوء تحت الحكم الإقطاعي المريع الممثل في شخصية السلطان عبد الحميد فكيف بالسوريين المسلوبي السيادة القومية و المقومات الاقتصادية و الثقافية.

و بما أنه يتخلل التطور التاريخي البطيء تطور (بالقفزات) و انتقال عاطفي من حالة إلى أخرى، شرع السوريون و الأتراك وفقا لهذا الناموس يتذمرون من القيود الإقطاعية التي تعيد تطورهم التاريخي و راحوا يعدون العدة للانقلاب الكبير بعد أن تهيأت الأسباب و نضجت المقدمات.

و يذكر نجاتي صدقي أن العرب و الأتراك- قبل الانقلاب الاتحادي*- كانوا على اتفاق تام في اتجاهاتهم الفكرية و مشاربهم النفسية، و أهدافهم السياسية. و قد لخص ذاك الاتفاق المؤرخون المثاليون بعبارة واحدة : الخلافة و الرابطة الدينية.

و الحقيقة إن هناك أسبابا أعمق بكثير من السبب الديني، فما دفعهم للتقارب إلا رغبتهم في تحطيم الحكم الحميدي ممثل الإقطاعية الاستبدادية المطلقة. فالأتراك رغبوا في تحطيمه مدفوعين بعامل الانقلاب البرجوازي الديمقراطي الرامي إلى كسر شوكة السلطان المستبد و تمكين العناصر التقدمية التركية أن تسير بالبلاد نحو الدفء الذي تسعى هي إليه، و العرب رغبوا في تحطيمه مدفوعين بعامل التحرر الوطني الرامي في هدفه التاريخي إلى الانفصال عن الأتراك و إيجاد مقومات خاصة بالشعوب العربية تضمن لها سيادتها القومية السياسية و الاقتصادية. و هكذا اجتمعت الرغبتان و كانت الوحدة العثمانية والجامعة الإسلامية مظهرا خارجيا فقط لاجتماع ا لمصالح و الرغبات. (١)

لم يظهر مفهوم (القومية العربية) كبديل للإسلام أو العصبية لقوم العرب عن

---

* كان الشعار الذي اتخذه الاتحاديون محركا لهم هو : حرية ، عدالة، مساواة مقتبسين ذلك من شعار الثورة الفرنسية البرجوازية الكبرى بـ حرية، مساواة ، إخاء. و استعمالهم الشعار المذكور يدل على مبلغ تأثرهم بالانقلابات الغربية و ما أدت إليه من أنظمة حزبية و ثقافية و حكومية .

١- مجلة الطليعة- دمشق العدد التاسع السنة الثالثة تشرين الثاني ١٩٣٧ ص ٧٢٧-٧٢٨ نجاتي صدقي

غيرهم من أقوام المسلمين، بل ظهر كدعوة سياسية مناهضة للاضطهاد العثماني، خاصة في مناطق الشام و العراق التي عانت ظلم و سقوط الدولة العثمانية في حين كانت مصر و المغرب العربي بعيدة عن الاضطهاد العثماني المباشر، بعد أن كانت قد سقطت تحت الاستعمار و الظلم الأوربي (البريطاني و الفرنسي و الإيطالي) . (١)

و قد كانت الوحدة العربية هي دعوة جامعة بين كل ذلك الطيف السياسي للحركات أو الأحزاب القومية لكن يختلف مضمون الوحدة من حزب إلى آخر.

و كان المفكرون السوريون المسيحيون أول من نادى بالقومية العربية، دون ربطها بالإسلام. فمع أن وضع المسيحيين الحقوقي تحسن كثيرا بعد أن وضعتهم الإجراءات الإصلاحية في أعوام ١٨٣٩و ١٨٥٦ على قدم المساواة مع المسلمين، إلا أنهم رفضوا أساس السلطنة العثمانية الديني، ذلك لأنه كان يفصل بينهم و بين مواطنيهم. و طمح المثقفون منهم، و ذكرى الإسهام المسيحي في الثقافة العربية القديمة ماثلة في خيالهم، إلى القيام بدور مهم في الإمبراطورية العربية إذا ما قدر لها الانبعاث. لذلك دعوا إلى قومية عربية تنطوي ضمنا على طابع علماني. و قد أيدهم في ذلك بعض من تحرر فكريا من العرب المسلمين. أما غالبيتهم، فترددت في تمزيق الوحدة العثمانية ، ذلك لأن تمسكها بالإسلام لم يكن قد تراخى بعد تحت وطأة النزعة القومية. (٢)

في عام ١٩٠٤ ألف نجيب عازوري في باريس رابطة الوطن العربي، و كان هذا العربي المسيحي (من لبنان) العضو الوحيد تقريبا في الجمعية، إلا أنه كان في غاية النشاط، إذ نشر باسم الرابطة عددا من النداءات، و في عام ١٩٠٥ طبع باللغة الفرنسية كتاب(يقظة الأمة العربية) و في عام ١٩٠٧ شرع بتصدير مجلة (استقلاب العرب). و كان شعار نجيب عازوري هو (الأقطار العربية للعرب). و دعا في نداءاته إلى الثورة و تأليف دولة من الولايات العربية المستقلة عن الباب العالي، فاقترح تقسيم البلدان العربية إلى قسمين، قسم شمالي (الهلال الخصيب) و قسم جنوبي (شبه الجزيرة العربية) ينظم كل منهما شؤونه بنفسه.و رأى أن تكون الجزيرة العربية مركز الخلافة باعتبارها دولة

١- صحيفة الأهرام – القاهرة ٢٠٠٠/٤/٢٤ ص٦ د. محمد السعيد ادريس

٢- البرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة مرجع سابق ص ١٥١

إسلامية، و أن يكون الهلال الخصيب دولة مدنية حديثة. (١) و لم تكن مصر و بلدان شمالي أفريقيا في قوام الدولة العربية التي تصورها . (٢)

و يرى لوتسكي أنه لم يكن من نية عازوري تعكير العلاقات مع الدول الكبرى، فضلا عن أن مشروعه كان صدى للمطامح البرجوازية الرامية إلى الزعامة. و وعد عازوري باحترام مصالح الأجانب،و اعتمد على معاضدتهم في الكفاح ضد الأتراك. (٣)

و يتابع لوتسكي: كان هذا الانعزال عن الشعب و انقطاع الصلة بالجماهير السمة المميزة للقوميين العرب و العامل الأساسي لضعفهم في أواخر القرن التاسع عشر و مطلع القرن العشرين. و كان يعيش معظمهم خارج البلاد، و اقتصروا في نشاطهم على الدعاية للأفكار الوطنية. إلا أنه رغم عيوبهم و نواقصهم كانت نشاطاتهم توطنة ليقظة العرب الوطنية، و كانت عاملا من العوامل التي سببت صعود الحركة الوطنية في سوريا الطبيعية و بقية الأقطار العربية. (٤)

هذا الوضع ساعد غالبية المسيحيين، و خاصة الكاثوليكيين و الموارنة والبروتستانتيين و بعض المثقفين الأرثوذكسيين، على التخلص من المجتمع العثماني الإسلامي، الذي كانوا يعيشون فيه بمثابة رعايا و مضطهدين و أذلاء، و من ثقافته، و الاتجاه نحو الثقافة الغربية، و الدعوة إلى المؤسسات السياسية و الاجتماعية القائمة في الغرب. و من هنا، جاء اتجاه عدد كبير من مثقفي المسيحيين السوريين، الذين كتبوا في هذه المرحلة إلى العلم والعلمانية، و الدفاع عن الحكم الديمقراطي الذي يتساوى فيه الجميع في الحقوق و الواجبات. و تنفصل فيه السياسة عن الدين، و تعطى فيه الوظائف حسب الكفاءات لا حسب الدين ... و عبر عن هذا الاتجاه مفكرون مسيحيون سوريون من أمثال فرنسيس مراش و جبرائيل دلال الحلبي و رزق الله حسون و شبلي شميل و فرح أنطون . حتى إن الأرثوذكسيين من هؤلاء (المراش والشميل و أنطون) دعوا إلى اشتراكية

١- جورج انطونيوس : يقظة العرب .. تاريخ حركة العرب القومية ترجمة ناصر الدين الاسد و احسان عباس ، تقديم نبيه امين فارس دار العلم للملايين – بيروت ١٩٨٠ ص ١٣١

٢- ساطع الحصري : محاضرات في نشوء الفكرة القومية مطبعة الرسالة – القاهرة ١٩٥١ ص ١٦٥ –١٧٥

٣- لوتسكي : تاريخ الأقطار العربية الحديثة منشورات دار التقدم- موسكو ص ٣٩٢

٤- = : مرجع سابق ص ٣٩٣

إصلاحية بالذات. (١)

و بمقارنة الواقعين العربي و الأوربي سنة ١٥١٧ بما انتهيتا إليه سنة ١٩١٨، و كذلك واقع التكوينات الاجتماعية العربية في ما بين التاريخين، يتضح أن العهد العثماني كان و بالا على العرب بعامة، و المسلمين منهم بخاصة. و بالتالي فالنظرة الرومانسية للعهد العثماني الغالبة في أدبيات التيار الإسلامي لا تستند إلى حقائق موضوعية. ناهيك عن لا واقعية الاتهامات المكالة جزافا للعمل و الفكر القومي العربي. (٢)

و قد كان وصول المعرفة و الآراء الجديدة إلى المسلمين العرب في سوريا بطيئا. و مع أن العائلات الكبيرة في المدن كانت تلعب دورها في السياسات المحلية، فإنها لم تكن تشترك مباشرة في حكم الإمبراطورية ككل، إلا نادرا. و هي لم تبدأ بتوظيف أبنائها في الإدارة المدنية عن طريق التخرج من المدارس المهنية إلا في أواخر القرن التاسع عشر، و كان علاقاتها في مطلع القرن مقتصرة على الهيئات الدينية التي كانت لا تزال مغلقة في وجه أفكار الإصلاح، إن لم نقل معادية لها. (٣)

لقد كان دور العرب محدودا في سقوط السلطنة العثمانية سنة ١٩١٨، و لم يكن لهم أي دور عندما ألغى كمال أتاتورك الخلافة سنة ١٩٢٤. كما لم يكن جميع من طالبوا بالاستقلال العربي ملتزمين بالفكر القومي، إذ كان منهم عملاء للمخابرات و الإرساليات التبشرية الفرنسية و الإنجليزية و الأمريكية و أداريون أضيرت مصالحهم أيام الاتحاديين. غير أن الفساد العثماني، و الشوفينية الطورانية، و انقلاب الاتحاديين على جميع حلفائهم السابقين و في مقدمتهم الضباط و الساسة العرب، و القمع الذي مارسه جمال باشا، كل ذلك، متفاعلا ، أسهم في اتساع إطار المعارضة العربية و انخراط قوميين و غير قوميين في حركة حملت شعارات قومية. (٤)

١- د. منير موسى: الفكر العربي في العصر الحديث مرجع سابق ص ٢٠

٢- مجلة المستقبل العربي – بيروت العدد ٢٦٠ ١٠/٢٠٠٠ ص ٥٦ عوني فرسخ : القوميون و الإسلاميون العرب : اشكاليات الحاضر و تحديدات المستقبل

٣- البرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة مرجع سابق ص ٧٦

٤- مجلة المستقبل العربي – بيروت عوني فرسخ مرجع سابق ص ٥١

و يمكن القول إن تاريخ سوريا ما بين الحربين العالميتين هو تاريخ الحركة الوطنية التي أرادت الاستقلال لكنها طرحت الإصلاح الديني السياسي عبر بوابة الثقافة الأوربية. (إلا أن معظم مفكري الإسلام كانوا يرون أن أسباب التمدن عائدة بالدرجة الأولى لنهضة العلوم في الغرب) . (١) فالعلم يجب أن يكون قيمة في حد ذاته. إلا أن الحركة القومية العربية الوطنية رفعت شعار الأيديولوجيا أو أدلجة العلم، و كذلك فعلت مع الدين و كل فروع المعرفة الأخرى. و يتجاذب مفكري عصر النهضة نزعتان، الإعجاب بمآثر الغرب، و الإقرار بتخلف العرب المعاصرين، لذلك، دعوا إلى إيقاظ الروح العربية و محاكاة الشعوب الأوربية المتقدمة. (٢)

أما جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩-١٨٩٧) و محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) فنظرا إلى ضرورة دراسة مقدمات الحضارة الغربية و العناصر التي يمكن للمسلمين اقتباسها عن أوربا من دون التفريط في العقائد الدينية و الحضارة الإسلامية، و التمييز بين الإسلام كدين و الإسلام كحضارة، فللسياسة عندهما دور مهم في تخلف المسلمين. (٣)

و كان فكر النهضة قائما على مجتمع يتجزأ و يتآكل بعد سقوط الدولة العثمانية، و تحول فكر النهضة إلى فكر استقلالي كفاحي، و حتى جذري. لقد خرج فكر عصر النهضة من تقاطع الثقافة الإسلامية، فتشوهت الأسئلة، و كذلك الإجابات عنها. (٤)

و في تحليل السيد يسين لمضمون الفكر القومي في مرحلة ما بين الحربين ١٩١٩- ١٩٣٩ يقول (.. قسطنطين زريق في أواخر الثلاثينيات يرى أن واجب كل عربي أن يحيي و يمجد ذكرى محمد و أن يؤمن بأن مصلحته هي بالدفاع عن الإسلام. و كان موقف قسطنطين زريق ينبع من تمسك المسيحيين الشوام بالقومية العربية التي وجدوا فيها

١- فهمي جدعان : أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث المؤسسة العربية للدراسات و النشر- بيروت الطبعة الثانية ص ٢٨

٢- علي محافظة : الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٧٩٨ – ١٩١٤ الأهلية للنشر- بيروت ١٩٧٨ الطبعة الثانية ص ٢٣-٣٤

٣- ماجد فخري: الحركات الفكرية و روادها اللبنانيون في عصر النهضة ١٨٠٠- ١٩٢٢ دار النهار – بيروت ١٩٩٢ ص١٠١

٤- مجلة المستقبل العربي – بيروت العدد ٢٦٥ ٢٠٠١/٣ ص ٢٨ أحمد الموصللي : جدليات الشورى و الديمقراطية

منطلقا سياسيا يحمي مجمل مصالحهم الفكرية و السياسية. يضاف إلى ذلك انهم تأثروا بظروف التحدي على المستوى المذهبي الديني التي تعرضوا لها من المسيحية الغربية). و في تحليله لفكر البعث يقول: (تحدث ميشيل عفلق موضحا بين الدين و القومية العربية، فالإسلام عنده خير مفصح عن نزوع الأمة العربية إلى الخلود و الشمول.و الإسلام بالنسبة للمسيحيين في اعتقاده بمثابة الثقافة القومية التي يجب أن يشبعوا بها حتى يفهموها و يحبوها و يحرصوا على الإسلام حرصهم على أثمن شيء في عروبتهم). (١) بينما يذهب د. محمد عماره إلى القول (كانت العروبة أولا ... ثم اقترب ميشيل عفلق من الإسلام، حتى قال مرة الإسلام أولا). (٢)

و قد ذهب د. مصطفى السباعي إلى القول (نحن السوريون دعاة وحدة عربية، و نعد أنفسنا جزءا من الأمة العربية، و وطننا السوري جزء من الوطن العربي الكبير). (٣)

لقد رأى جمال الدين الأفغاني أنه لا سبيل لتمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها، و الأمة العربية هي عرب قبل كل دين و مذهب، و هذا الأمر من الوضوح و الظهور ربما لا يحتاج بعده إلى دليل أو برهان. (٤)

و يقول طه حسين في ذلك : ليست اللغة العربية لغة المسلمين وحدهم، و لكنها لغة الذين يتكلمونها، مهما تختلف أديانهم. و ما دام الأقباط مصريين، و ما دامت اللغة العربية مقوما من مقومات الوحدة المصرية و الوطن المصري، فلا بد من أن يتثقف بها الأقباط، كما يتثقف بها المسلمون. و لا بد من أن يتثقف بها رجال الدين من الأقباط كما يتثقف بها رجال الدين من المسلمين. (٥)

١- السيد يسين : تحليل لمضمون الفكر القومي العربي (دراسة استطلاعية) مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت ١٩٨٠ ص ١٠٠ –١٠١ –١٣٠

٢- د. محمد عماره: التيار القومي الاسلامي دار الشروق- بيروت القاهرة ١٩٧٧ ص ١٦٨

٣- اكرم الجراح و طلال عز الدين: الأحزاب و القوى السياسية في سوريا ١٩٦١ – ١٩٨٥ القاهرة ص ٤٢١. و النص من خطاب د. مصطفى السباعي، المراقب العام للأخوان المسلمين في سوريا في مرحلة نشوئها الأولى ، القاه في المجلس النيابي السوري سنة ١٩٥٠

٤- جمال الدين الأفغاني : الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني مع دراسة عن الأفغاني الحقيقة الكلية . تحقيق د. محمد عماره المؤسة العربية العامة للكتاب دار الكاتب العربي – القاهرة ١٩٦٨ ص٢٣٧

٥- د. طه حسين : مستقبل الثقافة في مصر ج ٢ دار المعارف – القاهرة ١٩٣٨ ص ٤٨٥ – ٤٨٦

و قد كان أو ل صوت دوى في أرجاء الوطن العربي صوت الشيخ إبراهيم اليـازجي (١٨٤٧- ١٩٠٦) من خلال الأشعار التي كتبها في حث العرب على الجـهاد و الوحدة، مـن ذلك قصيدته:

سلامُ أيها العربُ الكرامُ وَ جَادَ رُبُوع قُطر كُمُ الغمَامُ
و نحن أولُو المآثِر مِن قديمٍ وَ إن جَحَدَت مآثِرَنَا اللنـــامُ (١)

وحين أنشد اليازجي هذه القصيدة في أوائل سنة ١٨٦٨ لم يبلغ من العمر ٢١سنة.

حلم فرنسا في سوريا

ذهب الحلم الفرنسي بسـوريا إلـى حد الـهوس حيث تغنـى الفرنسيون بسوريـــا و جبل لبنان ضمناً، تغنيهم بمتاحفهم و قصورهم. فرئيس وزراء فرنسا ليون غمبيتا (اعتبر المشرق العربي السوري جزءاً من التراب الوطني) هذا الجـزء الـذي أبقـاه غيمبيتـا غامضـاً حدده بول رود يرر بقو له (إن بقاء سوريا طيلة سبعة قرون تحت تـأثير الأفكـار الفرنسية أفضل شاهد على أنها أصبحت جزءاً من تراب الوطـن الأم و إرثـه) (٢) حيث أخلـص خلفـاء الملك لويس التاسـع للوعد الـذي قطعـه للموارنـة بـأن يحميـهم دائمـاً وتمكنـوا مـن تحقيقـه بسهولة أكثر، بعد سقوط القسطنطينية بأن أوجدوا علاقـات مـع البـاب العـالي. و قـد اعـترف بهم وحدة كحماة للاتين و كذلك للكاثوليك. فالملك فرنسوا الأول حصـل علـى امتيـازات هامـة لمسيحيي المشـرق، و الملـك هنـري الرابـع زاد هـذه الامتيـازات باسـتحصاله علـى فرمـان سلطاني. و الملك لويس الرابع عشر وضع منذ بداية عهده تحـت حمايتـه الخاصـة الموارنـة و رؤساءهم الروحيين القـاطنين فـي جبـل لبنـان. كمـا أوعـز إلـى قناصلـه فـي القسـطنطينية و سائر مدن الشرق و مرافئـه أن يمـيزوا الموارنـة عـن غيرهم بيـن سـائر رعايـا السـلطنة العثمانية.

١- الأب لويس شيخو: الآداب العربية في القرن التاسع عشر ج ٢ بيروت ١٩٢٦ ص ٤٣
٢- مجلة المسرة – حريصا ايلول – تشرين الأول السنة ١٩٩١/٧٧ ص ٨٣٧ د. ويغان العلم الثوابت والمتغيرات الفرنسية

هذا الاهتمام الفرنسي في المشرق وصل إلى الدعم الاقتصادي من توظيفات مالية و فنيين و تقنيين إلى النشاط الثقافي التعليمي من بعثات و إرساليات، إلى المبادرات السياسية و الإنسانية من رسمية و فردية عكست حجم الاهتمام الفرنسي بالمشرق فأعطته أبعادا روحية و تاريخية و سياسية. هذه الرؤية جعلت التسليم الفرنسي في بداية الحرب العالمية الأولى بسهولة تحرير سوريا و لبنان من تسلط العثمانيين. فقد أوصى قنصل فرنسا في لبنان و سوريا جورج بيكو في رسالة(١) بعث بها إلى الخارجية الفرنسية آواخر ١٩١٤ باحتلال فرنسا لسوريا و جبل لبنان بسرعة... عارضا استعداد الأهالي لاستقبال القوات الحليفة بمجرد ظهور عدة بوارج حربية أمام شاطئ بيروت. و ربط ذلك بكلمة ودية من بطريرك الموارنة في لبنان و أخرى من بطاركة الكاثوليك و الأرثوذكس في سوريا، حيث خشى الفرنسيون من موقف السوريين الأرثوذكس و أدركوا عداوة السوريين المسلمين الذين جنحوا نحو بريطانيا على أمل إنشاء إمبراطورية عربية. حيث اقتنع الفرنسيون أكثر فأكثر أن وجودهم الفعلي في سوريا ضروري لتهدئة أوضاع المستعمرات الأفريقية. فاستمرار وجود فرنسا في أفريقيا مرتهن بمستقبلها في سوريا، حيث تتمكن من رعاية مصالحها، كما أن حلم فرنسا هو جعل البحر المتوسط بحراً فرنسياً تجوبه البواخر الفرنسية بكل حرية لنشر الثقافة و الحضارة الفرنسية و ضمان استمرار توظيفاتها المالية في بلدانه، خصوصاً أن سوريا و لبنان يمتدان على طول الساحل الشرقي للمتوسط مما يجعل منهما موقعاً استراتيجياً لمراقبة ما يجوب المتوسط من بوارج حربية و سفن تجارية بعد أن تحكمت بريطانيا بقناة السويس و مضيقي الدردنيل و البوسفور تحت النفوذ التركي و حليفه الألماني. . كل ذلك كان التمهيد لاقتسام سوريا و لبنان.

لم يكن لهذه الأحلام الفرنسية أن تظهر دون تطلع آخر صادق في أعماقه من قبل بعض الجماعات المحلية، و هي بالطبع الطوائف المسيحية، التي أعطاها مفهوم الأمة في ذ لك العصر، تمايزاً إثنيا أساسه الدين. و قد كانت اللغة الفرنسية التي تتكلمها نخبة مهمة من السوريين و اللبنانيين هي وراء تسرب الأفكار و طرق العيش و العادات الفرنسية.

و حين زف موعد ا قتسام ولايات السلطنة العثمانية بعث جان – ماري جانغ، الصحافي الفرنسي المكلف بمهمات خاصة في الشرق بكتاب إلى ريبو رئيس وزراء فرنسا

١- مجلة المسرة – حريصا د. ويغان العلم مرجع سابق ص ٨٣٦

و وزير خارجيتها، و ذلك في ٢ نيسان ١٩١٧ يقول فيه: من المستحيل، بل من بـاب التنكر للذات و للتاريخ أن تتخلى فرنسا عن حقها في سوريا. (١)

و كتبت صحيفة المرسل لسان حال الطائفة المارونية بمناسبة مؤتمر الصلح و إعلان الانتداب الفرنسي على لبنان (إن استقلال سوريا تحت رعاية فرنسا الديمقراطية هو الحلم الجميل الذي طالما تغنى به أسلافنا، و هو الهدف الذي من أجله بذل السوريون مجهودات كبيرة. لقد ورثنا حبنا لفرنسا عن آبائنا و أجدادنا و كان كل جيل يقدم هذه الوديعة الغالية إلى الجيل التالي. (٢)

إذا كان الغرب اعتبر الحملات الصليبية هدفها تخليص المشرق من الظلم و الاضطهاد، فقد عنت له هذه الأرض مقدسة و مهد الحضارة الأوربية المسيحية و خدمة انسانية ببعدها الروحي و هدفها السامي، بقصد خلاص النفوس و السير في خطى المسيح و تحقيق حلم المؤمن المسيحي لتطأ قدماه أرض المسيح و المسيحية.

المسيحيون و الحكم العربي

قدر المفكرون المسيحيون منذ أواخر القرن التاسع عشر الدعوة إلى القومية العربية، حيث نسخ البساتنة و المعالفة و اليازجيون على منوال العازوري و تكلموا بالوطن و القومية و خلعوا الرداء الطائفي الضيق، كما ساهموا في النضال لإجلاء المستعمر التركي.

و لم يكن لدولة سوريا الحالية وجود سياسي قبل عام ١٩٢٠و إنما كانت عند الفتح العربي الإسلامي لبلاد الشام، تؤلف ولاية في خضم ولاية عربية إسلامية كبرى، تتراوح عاصمتها بين المدينة دمشق و بغداد و القاهرة. إلا أن الأمر اختلف بعد الحرب العالمية الأولى،و نشأ في (سوريا الطبيعية) – لبنان ، سوريا الحالية، فلسطين و شرقي الأردن- أربع دول من هذه الأجزاء رغم أنها لم تكن تشكل ولاية واحدة في العهد العثماني.

و اختلفت الآراء في من صمم العلم العربي، فالإنجليز يدعون أنه من تصميم

١- مجلة المسرة – حريصا د. ويغان العلم مرجع سابق ص ٨٣٦

٢- صحيفة المرسل – بوينس ايرس ١٩١٩/٥/١

(سايكس) و جعفر العسكري يقول إنه من تصميم الحسين، لكن محي الدين الخطيب (في أوراقه) ذكر بأنه من تصميم (جمعية الفتاة) و ترمز ألوانه : الأبيض للأمويين، و الأسود للعباسيين، و الأخضر للفاطميين، و أضاف الحسين إليه اللون الأحمر العنابي، شعار للأسرة الهاشمية و كلام الخطيب هو صحيح كما يعتقد . (١)

و هكذا يبدو لنا: إن التاريخ أو الالتفات نحوه- خصوصا ما كان منه معاصرا جاريا أو قريبا – هو جهد يأخذ على نفسه أن يراجع و يقيم و يضئ إلى أوسع ما يسمح به الزمن من كشف للخفايا، أو يوفره التقدم من أدوات للتحليل. (٢)

و تبدو فلسفة العروبة صناعة شامية حيث اتجه السوريون دائما إلى المعيار القومي قبل العامل الديني. فبينما كانت حركة الوطنية السورية ضد الأتراك – حيث يدين الطرفان بالإسلام - ذات طابع عربي خالص ، جاءت الحركة الوطنية المصرية ذات طابع إسلامي حتى تحولت إلى مصرية خالصة مع ثورة الشعب عام ١٩١٩. فالعروبة السياسية طارئة في مصر و وافدة عليها، بينما هي في الشام قوية الجذور راسخة العماد. (٣)

إن قيام حكومة عربية في دمشق لم يكن ليمر مرور الكرام، فاستعمار عثماني دام قرونا عدة جعل من البعض يستنكر قيام حكومة عربية ترفع رايات عراض معبرة عما تختزنه الجماهير في سوريا من توق إلى قيام وحدة عربية.

لقد جند الاتحاديون الأتراك أقلام عدد من الكتاب و الصحافيين العرب للطعن بالشريف حسين و تشويه المبادئ التي قامت الثورة العربية عليها. و لم يكتفوا بهذا، بل إن جمال باشا أصدر فتوى بتكفير الشريف حسين وقعها مفتو ولايات سورية (محمد أبو الخير عابدين) و حلب (محمد العبيسي) و بيروت (مصطفى نجا) و سنجق القدس (كامل الحسيني). (٤)

و أعتبر التيار الماروني في الأرجنتين أن الشريف حسين المرشح لتولي الخلافة كان ينتمي لمنطقة الحجاز الأقل تحضرا، من بلاد الشام، حيث إنها لا زالت تحكم بأعراف

١-مجلة العربي – الكويت عدد ١٥١ سنة ١٩٧١ ص ١٨

٢- صحيفة السفير- بيروت ٢٠٠٠/٥/٣٠ ص ١٤ محمد حسنين هيكل

٣- صحيفة الأهرام – القاهرة ١٩٩٩/٣/٩ ص ٣٨ د. مصطفى الفقي

٤- سليمان موسى : الحركة العربية مرجع سابق ص ٢٨٥

تقليدية في إطار عشائري و بالتالي فإن إخضاع بلاد الشام لسلطته سوف يكون ضاراً بها. و لسحب المشروعية من الذين استندوا إلى القومية العربية من أجل إقامة دولة عربية موحدة، رأى الاتجاه الماروني في الأرجنتين، أن القومية لا يمكن أن توحد بين الشاميين و الحجازيين على اعتبار أن عدداً من العناصر التي تعتبر ضرورية في القومية غير متوفرة، و من بين هذه العناصر نجد هناك وحدة الديانة (الموارنة مسيحيون، و الحجاز يدين الإسلام) و العرق (الموارنة من أصل فينيقي ثم غزوهم من طرف عربي القادمين من الحجاز في القرن السابع الميلادي) و العامل الجغرافي (المسافة الكبيرة التي تفصل لبنان عن الحجاز). (١)

و من كل ذلك نرى: إن التاريخ- قديمه و حديثه- في الشرق أو الغرب- ملؤه المآسي و النكبات و الأحداث الجسيمة و الأحقاد، نفذتها و تنفذها، القوى المتصارعة المتضاربة، بعضها ضد بعض، باسم الحرية أو دفاعا عن معتقد أو دين، و كل يرى نفسه صاحب النهج القويم و الحق المبين، بينما الخاسر الأكبر هو الإنسان مالك الأحلام و الآما ل و الطموحات و الحب. (٢)

حين حل عهد الاستقلال العربي كان أكثرية سكان مدينة دمشق و غوطتها و ضواحيها سنة ١٩١٩ البا لغ عددهم ثلاث مئة ألف نسمة من المسلمين السنيين مع أقلية شيعية و درزية. و المسيحيون لا يزيدون عن سد س المجموع و فيهم الأرثوذكسي و الكاثوليكي و السرياني و الماروني و الإنجيلي، كما وجد نحو خمسة آلاف من اليهود المواطنين العائشين مع إخوانهم السوريين. (٣)

و اعتبر العهد الفيصلي أو بالأحرى عهد الاستقلال العربي فاتحة لتصحيح الأوضاع التي تركها عهد الاستعمار التركي. و ما لبث أن تقدم وفد من الشباب إلى الحاكم العسكري الركابي باشا و مدير المعارف العام الأستاذ ساطع الحصري طالبين إعادة فتح معهدي الطب و الحقوق اللذين نقلا إلى بيروت أثناء الحرب العالمية الأولى، على وجه يتفق و التطور الحديث. فلبت الحكومة الطلب و أسست في ٣٠ تموز ١٩١٩ المجمع العلمي

١- صحيفة المنتقد : بوينس ايرس ١٩١٦/٢/١

٢- مصطفى جحا : محنة العقل في الاسلام بيروت ١٩٨٢ الطبعة الثانية ص ٣٦

٣- يوسف الحكيم : سورية و العهد الفيصلي دار النهار – بيروت ١٩٨٠ ص ٨٥

و اختارت لرئاسته الصحفي الأديب الأستاذ محمد كرد علي. و عهدت بإدارة معهد الطب إلى الدكتور رضا سعيد و الثاني إلى الأستاذ عبد اللطيف صلاح، كما عينت لهذه المؤسسات العلمية الثلاث بصفة أعضاء و معلمين نخبة ممتازة من كبار العلماء و الفقهاء و المؤرخين و الأطباء و الحقوقيين. فكان في المجمع العلمي الشيخ عبد القادر المغربي و المطران أفرام برصوم مطران السريان الأرثوذكس و أنيس سلوم رئيس الطائفة الإنجيلية و قسطاكي حمصي و عيسى اسكندر المعلوف و سليم عنحوري و عز الدين علم الدين. و في المعهد الطبي الدكاترة مرشد خاطر، و إبراهيم الساطي، و سامي الساطي، و ميشيل شمندي، و مصطفى شوقي، و عزة مريدن، و أحمد قدري. و في معهد الحقوق الأساتذة فارس الخوري و شاكر الحنبلي و توفيق الأيوبي و الشيخ أمين سويد و رشيد بقدونس. (١)

و من استعراض هذه الأسماء نرى أن المسيحيين نالوا من الوظائف الهامة في الجامعة كما في سائر دوائر الحكومة أكثر مما تفرضه النسبة العددية بينهم و بين إخوانهم المسلمين، مما دل على أن هدف الجميع الأسمى هو الوطن العربي و أن الإخاء العربي يسود جميع أبنائه و يحول دون كل تفرقة يتمناها و يسعى إليها الطامعون في وضع البلاد تحت الهيمنة الأجنبية.

و كان سبق هذه الأحداث زيارة قائد جيوش الحلفاء اللنبي و قرينته و ذلك في يوم من أيام شباط سنة ١٩١٩، فاستقبلهما الجيش و الحكومة و الجمعيات الوطنية. و أقام النادي العربي تكريماً لهما حفلة شيقت ألقيت فيها الخطب و الأشعار، و كلها ترمي إلى تعلق الشعب باستقلاله و وحدته العربية و الإطراء على الحلفاء و الزائرين الكريمين. و كان بين الخطباء العلامة أفرام برصوم مطران السريان الأرثوذكس، فقوبل خطابه بتصفيق حاد متواصل. و كان مسك ختامه (لا تحول مسيحيتي دون اعتناقي دين الوحدة العربية الذي يجمع أبناء البلاد على صعيد واحد من الإخاء و المساواة).

و بعد الانتهاء من خطبته، تقدم إليه الجنرال اللنبي و صافحه قائلاً (إنني بصفتي مسيحياً أشكر لك عواطفك و أتمنى لبني قومك السوريين مستقبلاً مجيداً. (٢)

كانت هذه المناسبات أعياداً وطنية جمعت المواطنين جميعاً من كل فئات و آزرت

١- يوسف الحكيم : سورية و العهد الفيصلي مرجع سابق ص ٤٤

٢- = = : = = = = = = ص ٥٩

اللحمة الوطنية بين أبناء الوطن الواحد، فكان عرساً لا زال صداه يتردد فيما كتب عن تاريخ سوريا إلى اليوم.

و كان يوم ٢ تموز حين وصلت لجنة الاستفتاء الأمريكية برئاسة مستر كراين إلى دمشق للوقوف على رغبة الأهلين في مصيرهم السياسي و في الدولة التي يختارونها بملء إرادتهم لتكون منتدبة عليهم زمناً تمدهم فيه بمعاونتها العلمية و الاقتصادية وفاقاً لسابق إيضاحات الرئيس ولسن.

و بناء على دعوة تلقاها رؤساء الأقليات الدينية من لجنة الاستفتاء، لبوا الدعوة و أجابوا بما يتمتعون به من كامل الحرية و الصراحة على أسئلة اللجنة فكان جواب بطريرك الروم الأرثوذكس غريغوريوس حداد صريحاً بطلب انتداب بريطانيا العظمى . و لما سأله رئيس اللجنة بواسطة الوجيه توفيق شامية الذي كان يقوم بالترجمة بينهما (ألا تريدون انتداب فرنسا) أجابه (سألتمونا ما نريده من انتداب فأجبناكم بصراحة، فهل تشمل مهمتكم سؤالنا عما لا نريده)؟ فابتسم الرئيس لهذا الجواب ابتسامة طويلة، شاكراً ببشاشة الوجه براعة البطريرك في رده الانتداب الفرنسي. أما رؤساء الطوائف الكاثوليكية فكانت أجوبتهم مقتصرة على طلب انتداب فرنسا. (١)

و بعد مداولات مطولة امتدت شهورا تم الإجماع على نص رسمي مبايعة الرؤساء الروحيين وقعه جميع رؤساء الطوائف المسيحية(٢) و كان نصه كالتالي:

بسم الله

إننا نحن الواضعين إمضاءاتنا و أختامنا بذيله، الرؤساء الروحيين للملل التابعة لنا، نقر ما يلي:

١- يوسف الحكيم : سورية و العهد الفيصلي مرجع سابق ص ١٠٤

٢- يعرف د. عبد الكريم رافق الطائفة بقوله ((لم يقتصر استعمال كلمة (طائفة) على التنظيم الحرفي، إذ أطلقت أيضا على طائفة دينية، كما في شيخ طائفة اليهود، أو على جماعة من المقيمين الأغراب، كما في شيخ طائفة المغاربة أو طائفة المغاربة، أو طائفة عسكرية، كما في طائفة عسكرية بحلب. و استعملت الكلمة في مجالات أخرى لتدل على فئة اجتماعية تحترف الاخلال بالأمن كما في طائفة أشقياء العرب (أي البدو) و قطاع الطرق طائفة الحرمية و السراق ، أو طائفة السراقين))*

* د. عبد الكريم رافق : بحوث في التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث جامعة دمشق ـ دمشق ١٩٨٥ ص ١٦٠ ـ ١٦٤

لما كان قد وقع اختيار الأمة السورية على تمليك سمو الأمير فيصل ابن جلالة الملك حسين الأول على سورية بحدودها الطبيعية (١) حضرنا اليوم في دائرة بلدية دمشق العاصمة لتأدية فرض المبايعة. فبالإصالة و النيابة نقر بأنه، مع مراعاة الشروط السبعة التي ارتبطنا بها مع سموه في أول مقابلة بيننا يوم الاثنين في سادس شهر تشرين الأول سنة ١٩١٨، و هي طاعة الله، احترام الإيمان، الحكم شورى على مقتضى القوانين و الأنظمة التي تسن لذلك، المساواة في الحقوق، توطيد الأمن، تعميم المعارف و إسناد المناصب و الوظائف إلى أكفائها، و قبول سموه بها واحدة فواحدة، نبايعه ملكا على هذه البلاد، متعهدين بالطاعة و الإخلاص لجلالته و المعاونة لحكومته بكل ما تصل إليه القدرة. و عليه أعطينا هذا الصك تحت إمضاءاتنا و أختامنا مسترحمين صدور إرادة جلالته بنشره في الجريدة الرسمية تصديقا منه و قبولا بمضمونه داعين لجلالته بطول العمر و استمرار التوفيق لما فيه خير البلاد و رقي أهلها.

الاثنين في ٨ آذار ١٩٢٠

التواقيع

مطران دمشق على السريان	اقليمس مخائيل الخماش
بطريرك الروم الكاثوليك	ديمتريوس
بطريرك الروم الأرثوذكس	غريغوريوس
وكيل جماعة بروتستان في سورية	أنيس سلوم
رئيس الأرمن الكاثوليك	جرجس
وكيل بطريرك الموارنة	الخوري بشارة الشمالي
رئيس دير الأرمن بالشام	استور سركيسيان

١- لم يطلق اسم سورية قبل الفتح العربي إلا على القسم الغربي الأوسط من خارطة بلاد الشام، كما نعرفها، و يدخل ضمنها العراق. فالفرس و الرومان أطلقوا عليها اسم (أسورا عربايا) . و في العهد الغريقو روماتي البيزنطي تم استعمال لفظ سورية على جميع البلاد الممتدة من الرها / اديسا و أنطاكية شمالا إلى الأردن و سيناء جنوبا ، بما في ذلك الساحل الكنعاني. و مع الفتح العربي و ما عقبه لم يستعمل العرب اسم سورية بل أطلقوا اسم الشام على هذه البلاد التي أقام فيها العرب النازحون من الجنوب*

* الأب متري هاجي أثناسيو : سورية المسيحية في الألف الأول الميلادي المجلد الخامس مكتبة نوبل- ١٩٩٧ ص ١١٢

الرئيس الروحي للسريان القديم الراهب مخايل انطون

حاخام الإسرائيليين يعقوب دانون

و اتخذ هذا البيان الصفة الرسمية بعد أن صدرت إرادة ملكية بنشر هذا الصك في الجريدة الرسمية. (١)

و شكل الفريق رضا الركابي وزارته عام ١٩٢٠ في عهد الملك فيصل متضمنة تعيين وزيرين مسيحيين هما فارس الخوري لوزارة المالية و يوسف الحكيم لوزارة أمور النافعة (التجارة و الزراعة و الأشغال العامة) و ذلك من أصل ثمانية وزراء كان عددها.

التمثيل المسيحي أبان الانتداب الفرنسي

سنخصص في هذا الفصل للحديث عن التمثيل المسيحي أبان الانتداب الفرنسي لسوريا تحديدا بوضعها الحالي. إننا نرى أن التمثيل الطائفي في الوزارات السورية أبان الثلاثينيات من القرن العشرين كان يقتصر على المسلمين السنة و المسيحيين. ففي وزارة أحمد نامي- مثلا- التي شكلت في الثاني من أيار عام ١٩٢٦ كانت على الشكل التالي:

حسني البرازي لوزارة الداخلية شاكر الشعباني لوزارة المالية

فارس الخوري لوزارة المعارف لطفي الحفار لوزارة الأشغال العامة

واثق المؤيد لوزارة الزراعة يوسف الحكيم لوزارة العدلية

و في ١٤ حزيران عام ١٩٣٢ أصدر رئيس الجمهورية السورية محمد علي العابد موافقته على تأليف الوزارة في العهد الجمهوري على الوجه التالي:

حقي العظم لرئاسة مجلس الوزراء و وزارة الداخلية مظهر رسلان لوزارتي العدلية و المعارف

جميل مردم بك لوزارتي المالية و الزراعة سليم جمبرت لوزارتي الأشغال العامة والاقتصاد.

١- الجريدة الرسمية – دمشق ١١ آذار ١٩٢٠

و هكذا كان هناك مسيحي من أصل أربعة وزراء هو مجموع وزراء هذه الحكومة و هو سليم جنبرت.

كما شكل عطا الأيوبي وزارته عام ١٩٣٦ مع احتفاظه بوزارة المالية من الساده:

سعيد الغزي لوزراة العدل ادمون الحمصي لوزارة المالية

مصطفى الشهابي لوزارة المعارف مصطفى القصيري لوزارة الأشغال و الزراعة

و في هذه الوزارة كان أحد الوزراء مسيحي و هو أدمون حمصي

و المهم في عام ١٩٣٦ و بالتحديد في ١٣ آذار صدور القرار التشريعي رقم ٦٠ من قبل المفوض السامي دي مارتيل المتضمن نظام الأحوال الشخصية للطوائف في سورية و لبنان، شاملا المسلمين و المسيحيين على قاعدة المساواة. و من مقتضاه إعطاء كل من أدرك سن الرشد و كان متمتعا بقواه العقلية حرية الاعتقاد الديني و المذهبي و الانتقال من طائفة إلى أخرى و غير ذلك من تعديل له صلة بالشؤون الدينية و المعاملات المذهبية، لم يألفه الأهلون رغم موافقته لما هو جار في جميع الدول المتقدمة. على أن وزارة عطا الأيوبي لم تقم بأي عمل في سبيل تطبيقه سوى نشره في الجريدة الرسمية (١) ، لأنها رأت فيه بدعة جديدة بالنسبة للمسلمين و المسيحيين فتركته في زاوية الإهمال إلى أن استقالت في ٢١ كانون الأول من السنة المذكورة، تبعا لاستقالة رئيس الجمهورية، محمد علي العابد، فانتقل الحكم إلى الكتلة الوطنية، فتألفت وزارتها برئاسة جميل مردم بك بناء على تكليف رئيس الجمهورية الجديد هاشم الأتاسي * و سارت بحزم و نشاط، حائزة بدء أمرها تأييد الشعب في معظم مواقفها الوطنية البارزة. و في ١٨ تشرين الثاني ١٩٣٨ أصدر المفوض السامي بقراره التشريعي ذي الرقم ١٤٦ تعديلا طفيفا لبعض مواد القرار السابق جعله غير شامل الناحية الدينية الحساسة. و اكتفت الحكومة الوطنية بهذا التعديل ونشره في الجريدة الرسمية، حرصا منها على عدم إثارة الرأي العام الناقم بطبيعة الحال على عدم نجاحها في حمل الحكومة الفرنسية على تصديق المعاهدة مع سورية و في الاحتفاظ بلواء

١- الجريدة الرسمية- دمشق ١٤ أيار ١٩٣٦

* شغل منصب قائمقام السلط الواقعة في الأردن الآن في أواخر الحكم العثماني لبلاد الشام

اسكندرونه سوريا عربيا. (١)

و حين أنس المفوض السامي في حكومة جميل مردم بك الحزم و المقدرة و التمتع بثقة الشعب، أشار إليها بتطبيق نظام الطوائف (الأحوال الشخصية) السالف الذكر. فتبنته الحكومة مؤملة من وراء ذلك التقدم بخطوة إلى الأمام في سبيل التطور الحديث الذي سارت عليه معظم الدول الحديثة وإثبات ثقة الشعب بالحكومة في ما لم تستطيع الحكومة السابقة الإقدام عليه. و ما أن علم مناوئوها عزمها على ذلك حتى اتخذوه فرصة جديدة للإجهاز عليها، فأثاروا الرأي العام ضدها بحجة تبنيها نظاما مخالفا للدين الحنيف، فقامت المظاهرات الشعبية في العاصمة مناد ية بسقوط حكومة مردم بك و عقبتها تظاهرات مماثلة في معظم المدن السورية لم تنته إلا بعد تدابير اتخذها موظفو الأمن العام و نصائح تقدم بها العقلاء من أنصار الحكومة. (٢)

و قد أدى كل ذلك إلى استقالة الوزارة في شباط عام ١٩٣٩ بعد أن ألفت لجنة حقيقية عليا للبت في الأمر، و بعد أن استنكر رجال الدين من مسلمين و مسيحيين ذلك، مذ كرين بالنصوص الدينية التي لا يمكن تعديلها أو الانحراف عنها، و هو الذي لا زال يعمل به إلى الآن.

بعد استقالة وزارة جميل مردم بك في ١٨ شباط ١٩٣٩ شكل لطفي الحفار وزارته و بقيت لمدة شهر و كانت على الشكل التالي:

لطفي الحفار لرئاسة الوزارة و وكالة وزارة المعارف

مظهر رسلان لوزارة الداخلية و وكالة وزارة الدفاع الوطني

١ـ قامت الظروف السياسية بعد الحرب العالمية الأولى بدور في تغيير خط الحدود السياسي بين القوميتين العربية و التركية إلى جنوب الخط الطبيعي و الذي هو خط تقسيم المياه لجبال طوروس. فبموجب معاهدة سيفر عام ١٩٢٠ احتفظت تركيا ببعض الأراضي العربية جنوب جبال طوروس، و هي بلاد مرعش و ديار بكر و حوض نهري سيحان و جيحان ، و بموجب اتفاقية أنقرة لعام ١٩٢١ تخلت فرنسا التي كانت منتدبة على سوريا عن جزيرة ابن عمر و عينتاب و أورفة و ماردين، كما تنازلت عن لواء الاسكندرونة لتركيا عام ١٩٣٩. و هكذا سيطرت تركيا على حوض نهري سيحان و جيحان، و جزء من حوض الفرات ، و على مصب نهر العاصي *

* مجلة شؤون الأوسط ـ بيروت العدد ٩٩ أيلول ٢٠٠٠ ص ٣٧ عدنان هزاع البياتي

٢ـ يوسف الحكيم: سورية و الانتداب الفرنسي دار النهار ـ بيروت ١٩٨٣ ص ٢٨٧

فائز الخوري لوزارة المالية و وكالة وزارة الشؤون الخارجية

نسيب البكري لوزارة العدلية

سليم جنبرت لوزارة الاقتصاد الوطني

و يلاحظ وجود وزيرين مسيحيين من أصل خمسة وزراء

و كاد سليم جنبرت المسيحي الكاثوليكي أن يؤلف الوزارة السورية عام ١٩٣٩(١) فيما إذا لم يتم تأليفها من قبل نصوح البخاري. و قد أتم هذا تأليف الوزارة التي ضمت بالإضافة إليه أربعة وزراء، كان بينهم سليم جنبرت.

و تألفت وزارة مجلس المديرين العامين برئاسة بهيج الخطيب بعد استقالة رئيس الجمهورية و الحكومة و ذلك يوم ٨ تموز ١٩٣٩ و كان بها أربعة وزراء بينهم يوسف عطا لله للزراعة (و هو مسيحي). و قد دامت هذه الوزارة أربعة و تسعين يوما.

و في ٢ نيسان ١٩٤١ ألف خالد العظم وزارته التي ضمت بالإضافة إليه أربعة وزراء كان بينهم حنين صجناوي.

كما في أيلول ١٩٤١ شكل حسن الحكيم وزارته التي ضمت سبعة وزراء كان بينهم فائز الخوري.

وتشكلت وزارة أخرى برئاسة سعد الله الجابري ضمت سبعة وزراء كان بينهم توفيق شاميه (و هو مسيحي أرثوذكسي).

و في ١٤ تشرين الأول سنة ١٩٤٤ ألفت الوزارة السورية على الوجه التالي:

فارس الخوري رئيس الوزراء و وزير بالوكالة للداخلية و المعارف

جميل مردم بك وزير الخارجية و الدفاع و الاقتصاد الوطني

خالد العظم وزير المالية و الإعاشة و التموين

عبد الرحمن كيالي وزير العدل و الأشغال العامة بالإضافة إلى شؤون الإفتاء و الأوقاف

كما يلاحظ في هذه الوزارة فقد عين مسيحي لأول مرة رئيسا لوزراء سوريه

أما في الوزارة التالية التي شكلت في السابع من نيسان سنة ١٩٤٥ فقد كانت على الشكل التالي: فارس الخوري رئيسا لمجلس الوزراء جميل مردم بك لوزارتي الخارجية و الدفاع الوطني.

١ـ خالد العظم: مذكرات خالد العظم (ثلاثة أجزاء) الدار المتحدة للنشر- بيروت ١٩٧٣ الجزء الأول ط ٢ ص ١٩٤

صبري العسلي لوزارة الداخلية نعيم انطاكي لوزارة المالية
حكمة حكيم لوزارة الأشغال العامة سعيد الغزى لوزارة العدل و وكالة وزارة الإعاشة و التموين مع شؤون الإفتاء و الأوقاف.

و هنا كان رئيس الوزراء و أحد الوزراء مسيحيين من أصل ستة وزراء.

و تلاحق تشكيل الوزارات في عام ١٩٤٥ الواحدة تلو الأخرى: ففي عام ٢٦ آب ألف الوزارة السورية فارس الخوري مع سبعة وزراء كل بينهم مخائيل اليان وزيرا للخارجية.

و بعد شهر و أيام شكل سعد الله الجابري وزارته في ٣٠ أيلول و كانت مؤلفة من خمسة وزراء مع رئيسها و ضمت نعيم أنطاكي لوزارة المالية و وكالة وزارة الأشغال العامة.

الدور السياسي أبان الحكم الوطني

استمرت هذه الوزارة إلى ما بعد استقلال سوريا، ثم أعيد تشكيلها و كان فيها أدمون حمصي وزيرا للمالية و ميخائيل اليان للأشغال العامة.

و جدير بالذكر بروز التيار الهاشمي الأردني فور جلاء فرنسا عن سوريا، إذ وجه الأمير عبدالله رسالة إلى الرئيس شكري القوتلي يدعوه فيها (بما معناه) لتسليم الأمانة لأصحابها، أي تسليم سوريا للأمير بعد تخلصها من الاستعمار الفرنسي باعتباره وريث الملك فيصل و والده الشريف حسين مفجر الثورة العربية الكبرى. (١)

و في آذار ١٩٤٦ نال الأردن استقلاله، و في حفل افتتاح البرلمان الأردني في تشرين الثاني ١٩٤٦ أعلن رسميا أن مشروع سوريا الكبرى مبدأ أساسي في السياسة الخارجية الأردنية.

نعود إلى الوزارات السورية حيث ألف جميل مردم بك وزارة في ٢٨ كانون الأول ١٩٤٦ دخلها نعيم الأنطاكي وزيرا للخارجية.

١- سامي جمعة: اوراق من دفتر الوطن دار طلاس- دمشق ٢٠٠٠ ص ٢٤

وخلال عام ١٩٤٧ جرت الانتخابات النيابية فقدم جميل مردم بك استقالته و لكن رئيس الجمهورية أعاد تكليفه مرة أخرى حيث لم يدخل هذه الوزارة أي مسيحي.

و في عام ١٩٤٨ أعاد مردم بك تشكيل وزارته و دخلها ميخائيل ليان وزيرا للاقتصاد رغم سقوطه في الانتخابات النيابية و أعيد أكثر أعضاء الوزارة السابقة. و في أيام هذه الوزارة قامت الحرب العربية الإسرائيلية.

إلى أن كان يوم ١٦ كانون الأول ١٩٤٨ حيث ألف الوزارة خالد العظم ودخلها حنين صحناوي وزيرا للاقتصاد الوطني.

و في عهد الزعيم حسني الزعيم ألف وزارته التي دخلها لأول مرة فتح الله صقال وزيرا للاقتصاد.

أما في عهد سامي الحناوي فقد شكلت وزارة من ١٢ وزيرا بما فيهم رئيس الوزراء كان فيهم اثنان من الوزراء المسيحيين هما فتح الله أسيون للدولة و ميشيل عفلق للمعارف.

و حدد القانون وقتها عدد أعضاء مجلس النواب ب ١٠٨ و هم موزعون على الشكل التالي ٨٦ للمسلمين ، ١٥ للمسيحيين، يهودي واحد و ٦ لممثلي العشائر. (١)

و في الوزارات المتعاقبة أصبح التمثيل المسيحي يتراوح بين وزير واحد كما هو الحال في وزارة ناظم القدسي حيث اسند إلى الدكتور جورج شلهوب منصب وزارة الصحة، أو وزارة العظم التي ضمت فتح الله أسيون وزيرا للصحة.

و في أول وزارة في عهد أديب الشيشكلي شكل ناظم القدسي وزارته و ضمت الدكتور جورج شلهوب لوزارة الأشغال العامة، الذي أعيد في التشكيل الوزاري التالي لوزارة الصحة. و في وزارة خالد العظم التالية التي كان غالبيتها من المستقلين و ضمت ثمانية وزراء مع رئيسهم لم يدخلها أي وزير مسيحي. أما وزارة حسين الحكيم التي ضمت عشر وزراء فقد دخلها فتح الله اسيون وزيرا للصحة. و في وزارة معروف الدواليبي المشكلة من عشرة وزراء دخلها جورج شاهين وزيرا للأشغال العامة و المواصلات. أما وزارة الزعيم فوزي سلو التي شكلت في ١٩٥٢/٦/٩ التي ضمت تسعة وزراء فقد دخلها الدكتور مرشد خاطر، و هو أول وزير ماروني سوري.

١- باتريك سيل: الصراع على سورية ترجمة سمير عبده، محمود فلاحة دار الأنوار- بيروت ١٩٦٨ ص ١٠٩

و في الأول من آذار ١٩٤٥شكل صبري العسلي وزارة جديدة ضمت بالإضافة إليه أحد عشر وزيرا بينهم كان عزت الصقال المسيحي و عين وزيرا للعدل و أعقبها في نفس العام في ١٩ حزيران وزارة سعيد الغزي المؤلفة من ستة وزراء كان بينهم الصقال الذي استلم منصب وزارة الخارجية و المالية. (١) و ما لبثت هذه الوزارة أن استقالت لتشكل وزراة في ١٤ تشرين الأول ١٩٥٤ برئاسة فارس الخوري التي ضمت بالإضافة إليه الدكتور رزق الله انطاكي وزيرا للمالية و كانت مؤلفة من عشرة وزراء إضافة إلى رئيسها. و في ١٣ شباط ١٩٥٥ شكل صبري العسلي وزراته المكونة بالإضافة إليه ثمانية وزراء كان بينهم ليون زمريا عن المسيحيين وزيرا للمالية. و في نفس العام شكل سعيد الغزي وزارة جديدة ضمت بالإضافة إليه اثني عشر وزيرا ثم عدلت بإضافة وزير آخر لها و ضمت الدكتور زرق الله أنطاكي للمالية ثم حول إلى وزارة الاقتصاد. و شكل صبري العسلي وزارته الجديدة في ١٤ حزيران ١٩٥٦ و ضمت بالإضافة إليه عشرة وزراء كان بينهم خليل الكلاس (المسيحي) الذي عين وزيرا للاقتصاد و كان من حزب علماني و عاد ثانية إلى وزارة صبري العسلي بنفس مهام الوزارة.

و برز على الصعيد السياسي في كل ذلك فارس الخوري الذي شغل مناصب عدة : نقيبا للمحامين ١٩٢٠ ـ١٩٢٦ ، رئيسا لمجلس النواب لعدة دورات ، و رئيس وزراء لثلاث مرات ، و رئيسا لمجلس الأمن الدولي، و هو أول و آخر مسيحي يشغل مثل هذه المناصب في سوريا خلال قرون. (٢) و هو لم يحمل في حياته إجازة في الحقوق و لم يكن خريج أي معهد حقوقي. و مع ذلك فإن هذا الحقوقي غير المؤذون اشتهر كمحام و حقوقي و كان أحد مؤسسي معهد الحقوق في دمشق ثم أستاذا في المعهد المذكور.(٣)

أما في أيام الوحدة بين سوريا و مصر فقد شكلت الوزارة الأولى في ١٩٥٨/٣/٧

١ـ أسعد الكوراني: ذكريات و خواطر دار رياض الريس ـ بيروت ٢٠٠٠ ص ٢٥٥

٢ـ سمير عبده: التحليل النفسي لشخصيات سياسية عربية دار علاء الدين ـ دمشق ١٩٩٩ ص ١٠٩ ـ ١٢١

٣ـ حنا خباز، د. جورج حداد: فارس الخوري حياته و عصره مطابع صادر ريحاني- بيروت ١٩٥٢

من ثلاثين وزيرا، ثمانية عشر منهم من الإقليم المصري و أثنا عشر من الإقليم السوري كان بينهم خليل الكلاس وزيرا للاقتصاد و التجارة في الإقليم السوري. و في الوزارة التالية للوحدة المشكلة في ١٩٥٨/١٠/٨ من خمسين وزيرا(١) ضمت خليل الكلاس كذلك للاقتصاد في نفس المنصب السابق، و بعد استقالة الوزراء البعثيين من هذه الوزارة عين سبعة وزراء من سوريا كان بينهم ثابت العريس الذي شغل منصب وزارة الثقافة و الإرشاد القومي و نقل في الوزارة التالية المشكلة في ١٩٦١/٨/١٦ إلى وزارة الشؤون الاجتماعية. (٢)

و في عهد الانفصال الذي أرخ له من ٢٨ أيلول ١٩٦١ إلى ٧ آذار ١٩٦٣ شكل مأمون الكزبري وزارته الأولى في هذا العهد ضمت بالإضافة إليه عشرة وزراء كان بينهم د. ليون زمريا وزيرا للمالية و التموين و د. عوض بركات وزيرا للاقتصاد و الصناعة. و في وزارة معروف الدواليبي التي ضمت بالإضافة إليه خمسة عشر وزيرا شغل بينهم نعوم السيوفي وزارة التخطيط و د. سهيل الخوري وزارة الشؤون البلدية و القروية. و في ١٦ نيسان ١٩٦٢ شكل د. بشير العظمة وزارته التي ضمت ثلاثة عشر وزيرا كان بينهم جورج خوري لوزارة المالية و د. روبير الياس لوزارة الأشغال العامة وهو ثاني وزير ماروني في حكومات سوريا إلى ذاك الوقت. و شكل خالد العظم وزارته في ١٩٦٢/٩/١٧ ضمت بالإضافة إليه عشرين وزيرا و هي أكبر وزارة سورية تشكل ضمت د. روبير الياس وزيرا للأشغال العامة و رفيق بشور وزيرا للثقافة و الإرشاد و خليل كلاس للمالية و جورج خوري للصناعة.

و كان عدد أعضاء البرلمان السوري في ١٩٦١/١٢/١ (١٧٢) منهم ١٦ للمسيحيين.

و منذ قيام ثورة ٨ آذار ١٩٦٣ و إلى نهاية القرن العشرين لم يكن اختيار الساسة المسيحيين لملء المراكز الوزارية أو غيرها من المناصب تمليه خلفيتهم الدينية، فحزب البعث العربي الاشتراكي حزب عقائدي علماني . بيد أن الوزارات التي شكلت في غضون هذه السنوات و كان يتجاوز عدد الوزراء بها ٣٠ وزيرا و ما فوق،

١- صحيفة الأهرام- القاهرة ٢٦ آذار ١٩٦٣

٢- سمير عبده : حدث ذات مرة في سورية دار علاء الدين- دمشق ١٩٩٨ ص ٥٥

كان هناك وزير مسيحي أو وزيرين و أحيانا نادرة ثلاثة. و أعيد التمثيل البروتستانتي للوزارة في بدايات ١٩٦٣ ، كما أنه دخل الوزارة لأول مرة عام ١٩٨٢ وزيران من السريان ، و في عام ١٩٩٢ إلى ٢٠٠٠ عين وزير ثالث هو د. دنحو داوود الذي بدأ محافظا ثم وزير دولة لشؤون مجلس الوزراء و أخيرا وزيرا للسياحة. أما باقي الوزراء الذين عينوا في هذه الحقبة فهم من طائفتي الروم الأرثوذكس و الكاثوليك ، على أنه دخل الوزارة للمرة الثالثة و الرابعة وزيرين موارنيين متعاقبين.

كما عين محافظون مسيحيون بمعدل محافظ واحد و لفترات طويلة و كان ذلك لأول مرة في تاريخ سوريا و في مرحلة حكم حزب البعث لسوريا، و أخيرا في مجلس الشعب لدورة ١٩٩٨ ـ ٢٠٠٢ المؤلف من ٢٥٠ نائبا كان هناك ١٦ نائبا مسيحيا.

أما في الأردن فغالبا ما تضم الوزارة وزير أو وزيرين مسيحيين علما أن الطوائف المسيحية أقل من خمسة في المئة من السكان تتمثل في البرلمان الأردني بـ ١١ بالمئة من المقاعد.

لقد اعتصر البطريرك هزيم الدور السياسي للمسيحيين الشرقيين في الوقت الحالي بتصريح له يقول به:

((لقد سررنا أنهم فطنوا مؤخرا في مصر أنه يحق (لكم مليون مسيحي) بوزير أو أثنين أو ثلاثة يتسابقون بهم عليهم. هذا أمر معيب. أنا أعتقد أنه من مصلحة الجميع ومصلحة تلك الدول أولا أن تظهر الوجوه المسيحية و وجود المسيحيين كي لا يقال إن الدول الإسلامية تنكر الآخرين خصوصا مواطنيها الذين لا يقصرون في أي شيء من واجبات الوطنية)). (١)

١ـ صحيفة السفير ـ بيروت ٢٣ /١١/ ٢٠٠٠ ص ٤ من حديث بطريرك الروم الأرثوذكس اغناطيوس الرابع هزيم إلى دنيز حداد

المراجع *

باللغة العربية

١- الأفغاني، جمال الدين: الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني مع دراسة عن الأفغاني الحقيقة الكلية تحقيق د. محمد عماره المؤسسة العربية العامة للكتاب دار الكاتب العربي – القاهرة ١٩٦٨

٢- ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي المعروف بابن جلجل طبقات الأطباء و الحكماء، تحقيق فؤاد السيد المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية- القاهرة ١٩٥٥

٣- أبو ريده، محمد عبد الهادي: رسائل الكندي الفلسفية دار الفكر العربي- القاهرة ١٩٥٠ الجزء الأول

٤- البهي، د. محمد : الدين و الحضارة الإنسانية مكتبة الشركة الجزائرية- الجزائر دون ذكر تاريخ الطبع

٥- ابراهيم، د. حسين، د. شاكر مصطفى، د. حامد عمار.. إعداد، في فصل : الإعلان العربي للتنمية الاجتماعية ... المحور الثقافي . عن كتاب : اجتماع الخبراء التحضيري حول الاعلان العربي للتنمية الاجتماعية توزيع منظمة الاسكوا- عمان ١٩٩٥

٦- البشري، طارق: المسلمون و الأقباط في اطار الجامعة الوطنية الهيئة المصرية الهامة للكتاب – القاهرة ١٩٨٠

٧- أثناسيو، الأب متري هاجي: سورية المسيحية في الألف الأول الميلادي الجزء الأول مكتبة نوبل- دمشق ١٩٩٧

٨- أثناسيو، الأب متري هاجي: سورية المسيحية في الألف الأول الميلادي الجزء الثاني مكتبة نوبل – دمشق ١٩٩٧

٩- أثناسيو، الأب متري هاجي: سورية المسيحية في الألف الأول الميلادي الجزء الخامس مكتبة نوبل- دمشق ١٩٩٧

١٠- الجراح، أكرم و طلال عز الدين: الأحزاب و القوى السياسية في سوريا ١٩٦١ –١٩٨٥ القاهرة

---

* حرصا على دقة البحث فإن أي إغفال في ذكر اسم المترجم أو اسم دار النشر أو سنة الطبع في مراجع الكتاب يتحمل مسؤوليته ناشرو هذه المطبوعات

١١- الحكيم، يوسف: سوريه و العهد العثماني دار النهار – بيروت ١٩٨٠
١٢- = = : سوريه و العهد الفيصلي دار النهار- بيروت ١٩٨٠
١٣- = = : سوريه و الانتداب الفرنسي دار النهار – بيروت ١٩٨٣
١٤- الحوراني، يوسف: الانسان و الحضارة المكتبة العصرية – بيروت ط ٢ ١٩٧٣
١٥- الحصري، ساطع: محاضرات في نشوء الفكرة القومية مطبعة الرسالة- القاهرة ١٩٥١
١٦- الحداد، يوسف (الاستاذ حداد): القرآن دعوة نصرانية منشورات المكتبة البوليسية- بيروت الطبعة الثالثة
١٧- الحريري، أبو موسى: المسيحية في الميزان سلسلة لأجل المعرفة ديار عقل- لبنان ١٩٨٩
١٨- الجوزية، ابن قيم : (كتاب هداية الحيارى) في أجوبة اليهود و النصارى توزيع الجامعة الاسلامية – المدينة المنورة ١٣٩٦ هـ
١٩- الخفاجي، عصام: ملاحظات حول العولمة الدولة و القومية في (العولمة) مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت ١٩٩٩
٢٠- الدمشقي، الخوري ميخائيل بريك: تاريخ الشام ١٧٢٠-١٧٨٢ تحقيق و تقديم أحمد غسان سبانو دار قتيبة- دمشق ١٩٨٢
٢١- اسحق، سعيد: صور من النضال الوطني مطابع الف- باء – الأديب- دمشق ١٩٧٨
٢٢- آشتور، آ: التاريخ الاقتصادي للشرق الأوسط في العصور الوسطى ترجمة عبد الهادي عبله دار قتيبة – دمشق ١٩٨٥
٢٣- أصيبعة : ابن أبي : عيون الأنباء في طبقات الأطباء بيروت ١٩٥٢
٢٤- الشافعي، شيخ الاسلام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: الاتقان في علوم القرآن الجزء الاول الطبعة الرابعة عشر مكتبة و مطبعة مصطفى البابي الحلبي و أولاده – القاهرة ١٣٩٨هـ
٢٥- خالد العظم:آ مذكرات خالد العظم (ثلاثة أجزاء) الدار المتحدة للنشر- بيروت ١٩٧٣ الجزء الأول ط ٢

٢٦- العظمة، نذير: عدى بن زيد.. شخصيته و شعره بيروت ١٩٦٠
٢٧- آل كاشف العظماء ، سماحة الامام الاكبر محمد الحسين : التوضيح في بيان حال الانجيل و المسيح دار الغدير – بيروت ط ٢ ١٩٨٠
٢٨- انطونيوس، جورج: يقظة العرب.. تاريخ حركة العرب القومية ترجمة ناصر الدين الاسد و احسان عباس تقديم نبيه امين فارس دار العلم للملايين- بيروت ١٩٨٠
٢٩- المؤلفين، مجموعة من : البعد الثقافي للتنمية .. نحو مقاربة عملية ترجمة يوسف سماحة منشورات اليونسكو – الاسكوا ١٩٩٥
٣٠- المسدي، عبد السلام: العولمة و العولمة المضادة كتاب سطور القاهرة ١٩٩٨
٣١- بهنام، المطران جرجس القس: يوميات مطران دار ماردين – حلب ١٩٩٨
٣٢- توما، د. اميل: الحركات الاجتماعية في الاسلام دار الفارابي – بيروت ١٩٨٠
٣٣- جدعان، فهمي : أسس التقدم عند مفكري الاسلام في العالم العربي الحديث المؤسسة العربية للدراسات و النشر- بيروت الطبعة الثالثة
٣٤- جحا، مصطفى: محنة العقل في الاسلام بيروت ١٩٨٢ الطبعة الثانية
٣٥- جمعه، سامي: اوراق من دفتر وطن دار طلاس – دمشق ٢٠٠٠
٣٦- حسين، طه: مستقبل الثقافة في مصر ج ٢ دار المعارف – القاهرة ١٩٣٨
٣٧- حوراني، البرت: الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1939 ترجمة كريم عز قول دار النهار – بيروت ١٩٧٧
٣٨- خباز، حنا و د. جورج حداد: فارس الخوري حياته و عصره مطابع صادر ريحاني – بيروت ١٩٥٢
٣٩- خليل، الأب سمير: تحقيق، مقالة في التوحيد للشيخ يحي بن عدي(٨٩٣- ٩٧٤) سلسلة التراث العربي المسيحي رقم ٢ جونيه ١٩٨٠
٤٠- خالد، الشيخ حسن: موقف الاسلام من الوثنية و اليهودية و النصرانية سلسلة (الدراسات الاسلامية) معهد الانماء العربي- بيروت ط ١ ١٩٨٦
٤١- رافق، عبد الكريم: بحوث في التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث جامعة – دمشق – دمشق ١٩٨٥
٤٢- زيادة، د. معن : معالم على طريق تحديث الفكر العربي سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ١١٥

٤٣- سيل، باتريك: الصراع على سوريه ترجمة سمير عبده ، محمود فلاحه دار الأنوار- بيروت ١٩٦٨

٤٤- شيخو، الأب لويس: النصرانية و آدابها بين عرب الجاهلية بيروت ١٩٢٣

٤٥- = = = : الآداب العربية في القرن التاسع عشر جزء ٢ بيروت ١٩٢٦

٤٦- طرازي، الفيكونت فيليب دى: عصر السريان الذهبي حلب ١٩٧٩

٤٧- عماره،د. محمد : التيار القومي الاسلامي دار الشروق – بيروت – القاهرة ١٩٩٧

٤٨- علي، د. نبيل: الثقافة العربية و عصر المعلومات سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ٢٦٥

٤٩- عوض، لويس: مقدمة في فقه اللغة العربية الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٩٨٠

٥٠- علي، جواد : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام عشرة أجزاء دار العلم للملايين – بيروت ط ٤ ١٩٧٨ الجزء السادس

٥١- عبده ، سمير: حدث ذات مرة في سورية دار علاء الدين – دمشق ١٩٩٨

٥٢- = = : التحليل النفسي لشخصيات سياسية عربية دار علاء الدين - دمشق ١٩٩٩

٥٣- عبده، سمير : السريانية – العربية الجذور و الامتداد دار علاء الدين- دمشق ٢٠٠٠

٥٤- عبده، سمير: السريان : المسيحيون – المسلمون دار علاء الدين – دمشق ٢٠٠٠

٥٥- عبده، سمير : المسيحيون السوريون- قديما و حديثا دار علاء الدين – دمشق ٢٠٠٠

٥٦- فانتيجو: المعجزة العربية ترجمة رمضان لاوند بيروت ١٩٦٠

٥٧- فخري، د. ماجد: الحركات الفكرية و روادها اللبنانيون في عصر النهضة ١٨٠٠- ١٩٢٢ دار النهار- بيروت ١٩٩٢

٥٨- كوريون ، الأب جان : كنيسة المشرق العربي ترجمة المطران اغناطيوس هزيم منشورات النور- بيروت ١٩٨٠

٥٩- فلينكل، هورست: آثار سورية القديمة ترجمة قاسم طوير دمشق ١٩٨٥

٦٠- كاريذرس، مايكل : لماذا ينفرد الانسان بالثقافة ترجمة شوقي جلال سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ٢٢٩

٦١- كوراني أسعد : ذكريات و خواطر دار رياض الريس – بيروت ٢٠٠٠

٦٢- لوتسكي: تاريخ الاقطار العربية الحديثة منشورات دار التقدم – موسكو

٦٣- مؤلفين ، مجموعة : الكنائس المسيحية في لبنان مركز الابحاث و الدراسات المسيحية في الشرق- بيروت ١٩٨٦

٦٤- ماريتان ، جان : الفرد و الدولة ترجمة د. صالح الشماع منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت

٦٥- مكي، محمد علي: لبنان ٦٣٥- ١٥١٦ دار النهار – بيروت ١٩٨٥

٦٦- مجهول ، مؤلف : مذكرات تاريخية عن حملة ابراهيم باشا في سوريه تحقيق احمد غسان سباتو دار قتيبة – دمشق

٦٧- موسى، سليمان : الحركة العربية ١٩٠٨- ١٩٢٤ دار النهار – بيروت ١٩٧٧

٦٨- موسى، منير: الفكر العربي في العصر الحديث دار الحقيقة – بيروت ١٩٧٣

٦٩- محافظة ، علي: الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٧٩٨- ١٩١٤ الاهلية للنشر – بيروت ١٩٧٨ الطبعة الثانية

٧٠- قرم، جورج : تعدد الأديان و أنظمة الحكم، دراسة سوسيولوجية و قانونية مقارنة دار النهار – بيروت ١٩٧٩

٧١- هاشم، شريف محمد: الاسلام و المسيحية في الميزان الطبعة الأولى بيروت ١٩٨٨

٧٢- يسين، السيد: تحليل لمضمون الفكر القومي العربي (دراسة استطلاعية) مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت ١٩٨٠

مجلات

٧٣- مجلة المستقبل العربي – بيروت ايار ١٩٨٦ العدد ٨٧ هدى زريق

٧٤- = = = = العدد ٩٠ ١٩٨٦/٨ د. ادريس سالم الحسن

٧٥- = = = = العدد ٢٦٠ ٢٠٠٠/١٠ عوني فرسخ

٧٦- مجلة المستقبل العربي: بيروت أ- العدد ٢٦٥ ١٠/٢٠٠٠ أحمد موصللي

ب- العدد ٢٦٥ ١٠/٢٠٠٠ د. عبد العزيز الدوري

٧٧- مجلة الاجتهاد – بيروت العددان ٤٥-٤٦ السنة الحادية عشر شتاء و ربيع العام ٢٠٠٠ بطرس أبو منة

٧٨- مجلة الاجتهاد – بيروت العدد ٤٩ شتاء العام ٢٠٠١ الفضل الشلق

٧٩- مجلة البصائر – بيروت العدد ٢٤ شتاء ١٤٢١ هـ

٨٠- مجلة الضياء – القاهرة العدد ٢ (١٨٩٩-١٩٠٠) ابراهيم يازجي

٨١- مجلة الطليعة- دمشق العدد التاسع السنة الثالثة تشرين الثاني ١٩٧٣ نجاتي صديق

٨٢- مجلة العربي – الكويت العدد ١٥١ سنة ١٩٧١

٨٣- مجلة المسرة- حريصا تموز – كانون الأول السنة ٦٢/ ١٩٧٦ الاكسرخوس يوسف نصر الله

٨٤- مجلة المسرة- حريصا ك٢- شباط السنة ١٩٨١/٦٧ الخوري اغناطيوس ديك

٨٥- = = = ت ٢ – ك١ السنة ٧١/ ١٩٨٥

٨٦- = = = أ- اذار- نيسان السنة ١٩٨٧/٧٣ الأب موريس بورماس ترجمة المطران يوحنا منصور

ب- ايار – حزيران السنة ٧٣/ ١٩٨٧ الأب موريس بورماس ترجمة المطران يوحنا منصور

٨٧- مجلة المسرة – حريصا ايار – حزيران السنة ١٩٩١/٧٧

٨٨- = = = ايلول – ت ١ السنة ١٩٩١/٧٧ د. ويغان العلم

٨٩- = = = أ- تشرين الثاني السنة ٧٧/ ١٩٩١ المطران لطفي لحام

ب- = = = = = د. داود صايغ

ت- = = = = = د. طارق متري

٩٠- = = = ايار – حزيران ١٩٩٢ الأب يوسف داغر

٩١- مجلة المقتبس- دمشق عود ١٩٠٧ الأب انستاس ماري الكرملي

٩٢- مجلة المشرق – بيروت عدد ١٨ عام ١٩٠٢ الأب لويس شيخو

٩٣- مجلة سومر- بيروت العدد ٢ ١٩٩١/١١/١٨ محمد وحيد خياطه
٩٤- مجلة شؤون الاوسط- بيروت العدد ٦٢ ايار ١٩٩٧ نبيل عبد الفتاح
٩٥- = = = = العدد ٩٩ ايلول ٢٠٠٠ عدنان هزاع البياتي
٩٦- = نوافذ- جده كانون الأول ٢٠٠٠

صـــــحـــف

٩٧- صحيفة الانوار- بيروت ٢٠٠٠/١١/٢١
٩٨- صحيفة السفير – بيروت ٢٠٠٠/٥/٣٠ محمد حسنين هيكل
٩٩- = = = ٢٠٠٠/٧/٤ الشيخ محمد مهدي شمس الدين
١٠٠- = = = ٢٠٠٠/١١/٢٣
١٠١- = = = ٢٠٠١/٣/٢
١٠٢- = = = ٢٠٠١/١١/٢٣
١٠٣- صحيفة العمل – بيروت ١٩٧٨/٤/١٣ نبيل حرفوش
١٠٤- صحيفة المنقذ – بونيس ايرس ١٩١٦/٢/١
١٠٥- = المرسل – بونيس ايرس ١٩١٩/٥/١
١٠٦- الجريدة الرسمية – دمشق ١١ آذار ١٩٢٠
١٠٧- الجريدة الرسمية - دمشق ١٤ أيار ١٩٣٦
١٠٨- صحيفة الأهرام – القاهرة ٢٦ آذار ١٩٦٣
١٠٩- = = = ١٩٩٢/٦/٢٨ د. عاطف العراقي
١١٠- = = = ١٩٩٨/١٢/١٨ دلال العطوى
١١١- = = = ١٩٩٩/٣/٩ د. مصطفى الفقي
١١٢- = = = ٢٠٠٠/١/٣١ رجاء النقاش
١١٣- = = = ٢٠٠٠/٤/٢
١١٤- = = = أ- ٢٠٠٠/٤/٢٤ محمد البدري
ب- = = د. محمد سعيد ادريس
١١٥- صحيفة النهار- بيروت ملحق الشباب ١٩٩٥/٧/٨

١١٦- صحيفة النهار – بيروت ٢٠٠٠/١٠/١٧

١١٧- = = = ٢٠٠٠/١٠/٢٠

١١٨- = = = أ- ٢٠٠٠/١١/٢٨ القس عيسى دياب

ب- =

١١٩- = = = ٢٠٠١/٢/١٥ ميشيل اده

١٢٠- = = = ٢٠٠٠/٢/٢٦

١٢١- = = = ٢٠٠١/٣/٢ الدكتور الأب يوسف مونس

١٢٢- = = = ٢٠٠١/٣/٨

١٢٣- = = = ٢٠٠١/٤/٣

باللغـــة الأجنبيـــة

124- Berque، Jacques: The Arabs، Their History and future، translated by Jean Stewart، Preface by Sir Hamilton Gibb (London) . Faber and Faber، New York: Prager، 1964.

125- Brewer، M & Kramer، R: the Psychology of intergroup Attitudes and Behavior، Ann. Rev. Psychol 1980.

126- Haddad Robert: Syrian Christians in Muslim Society. Princeton press، Princeton 1970.

127- Hourani، Albert Hibib: Syria and Lebanon : A Political Essay، London : Oxford University Press 1946 .

128- Issawi، Charles Philip، ed : The Economic History of the Middle East، 1900- 1914 C Chicago، 111 : University of Chicago Press 1960.

129- Jeefery، Arthur: For Foreign Vocabulary of the qu'ran Jeefery (Baroda ، Oriental Institute 1938.

130- Kuhn، Alfred: The Logic of social systems (San Fransisco، Calif: Jossey- Bass 1974.

131- Pets، Roberts، : Middle East Policy Magazine June 2000 .

132- Rabin، C (Arabiyya، in Encyclopedie de L'islame),2,ed2، ed، 1، Leyde et Paris 1960.

133- Turner، J: Social Identification and Psychological Groups Formation، in: H. Tajfel (Ed) the Social Dimension، London: Cambridge University Press 1984 Vol 2.

134- Van Nostrand، J.J: (Roman Spain) in : tenney Frank، ed، an Ecomonic Survey of ancient Roman، 6 Vols (Baltimore، Mad: John Hopkins University Press، 1930-1940)، Vol 3 .

135- Young، C.M (lebanese Immigration since 1970)، Vol 3 Australian People: an Encyclopeadia of the Nation its People، and their Origins (North Ryle ، NSW، Australian Angus and Robertson Publishes 1988.

الفـــهـــرس

المقدمة ٥

مدخل ١١

الحوار المسيحي الإسلامي ١٩

معرفة الآخر..... ..... ٢١

المعاني السامية بين الديانتين..... ..... ٢٢

التقارب الروحي بين الديانتين..... ٢٦

سوء فهم الحوار..... ..... ٢٧

التمعن في دراسة الديانتين يزيل الشك ٢٩

الثقافة السورية المسيحية ٣٣

في تعريف الثقافة ٣٣

مدخل لدراسة الثقافة السورية المسيحية ٣٦

ثقافة تتسع للكل ٣٨

الثقافة رموز ٤١

المسيحية و هوية الأفراد الاجتماعية ٤٢

الفكر المسيحي في الثقافة العربية ٤٥

رياح المنطقة ٤٦

الثقافة المسيحية قبل الإسلام ٤٨

الثقافة المسيحية في العصر الإسلامي ٥٠

قيمة المساهمة في الثقافة العربية ٥٤

الهجرة المسيحية بين حسناتها و سيئاتها ٥٧

هجرة المسيحيين ٦٠

الطوائف المسيحية في سوريا ٦٥

السريان الأرثوذكس ٦٦

الموارنة ٦٨

الأرمن ٧٠
الروم الأرثوذكس ٧٢
الروم الكاثوليك ٧٤
الإنجيليون ٧٦
المسيحيون الآخرون ٧٨
الدور السياسي لمسيحيي سوريا ٨١
وضع المسيحيين من السلطة ٨٢
في العهد العثماني ٨٤
المسيحيون و عصر النهضة ٨٨
حلم فرنسا في سوريا ٩٦
المسيحيون و الحكم العربي ٩٨
التمثيل المسيحي أبان الانتداب الفرنسي ١٠٤
الدور السياسي أبان الحكم الوطني ١٠٨
المراجع ١١٣
الفهرس ١٢٢

Samir Abdoh

The Christians In Syria At The Dawn Of The Third Millennium

Hasan Malas Publishing House
P.O. Box 6174
Tel: 4419653
Fax: 4428005
Damascus- Syria